

الدليلُ المختارُ
على أن الاعتبارَ
في الحكم على الرجالِ
بالعاقبةِ والمآلِ
لا بما جرى في بدايةِ الحالِ
استدراكُ توجب أمره

صنّفه

فضيلة الشيخ الدكتور

أبو عبد الرحمن عبيد بن أبي السعور الكيال

المكتبة
للإمامة والفتنة

للإمامة والفتنة

٠١٠٠٣٩١٥٢٧٠

٠١١٤٥٨٠٩٤٤٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ،
أما بعد:

فقد روى البخاري في صحيحه (٥٢٣١) ومسلم (٢٦٧١) من حديث أبي موسى
الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«إن من ورائكم أياماً ينزل فيه الجهل [وفي رواية: يُبثُّ فيها الجهل] ويرفع فيها
العلم» الحديث.

وروى البخاري في صحيحه (٧٣٠٧) واللفظ له، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث
عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعاً، ولكن ينتزعه منهم مع قبض
العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يُستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون».

وإن المتأمل في الساحة الدعوية؛ ليرى أثر هذين الحديثين رأى العين مُتَشَخِّصًا
في الكثير من الرجال الذين يضلون الأمة بفتاويهم وآرائهم الفاسدة الباطلة التي
تخالف الكتاب والسنة والإجماع، ينقضوا بها عرى الإسلام عروة عروة،
وتجدهما في الكثير من الشباب المتعالمين الذين يتكلمون في دين الله بدون علم؛
قد بُثَّ فيهم الجهل بثأً شديداً؛ حتى نضح على أقوالهم وأفعالهم بدين تديتوا به،
وبمذاهب تمذهبوا بها ما أنزل الله بها من سلطان، وليس عليها أثارة من علم، بل
يجد المرء منّا صبياناً وغلماً قد نبتت لهم لحي؛ يتكلمون بها في دين الله، وما

حصّلوا من العلم ما يؤهلهم لإحسان الوضوء والصلاة، فضلاً عن أن يحققوا مسألة من مسائل الشريعة، وليس في جعبتهم إلا ظاهر الهدي النبوي من اللّحي والقميص القصير، ضابط التكلم عندهم في دين الله: الإلمام بتقنية وسائل الإنترنت، وعدد شعيرات اللحية وكثافتها!!

• سبب تصنيف هذا الكتاب:

ولقد كثّر اللّغظ والكلام بين هؤلاء الصبيان ذوي اللّحي في مسألة عجيبة، لولا أنها وُجِدَت وانتشرت وذاعت حتى ترسخ أثرها في قلوب عامتهم، حتى طلب منّي بعض طلبة العلم الكتابة فيها، لولا ذلك ما ألقيت لها بالاً، ولا خططت فيه حرفاً؛ إذ لا يقول بهذا الكلام إلا من أكله الجهل أكلاً.

غير أن ضرورة البيان؛ والحاجة إلى إزالة اللبس والجهالات؛ وأمانة التبليغ؛ تُلزم في مثل هذه الحالات بتجلية ما قد خفي على الكثير من طلبة العلم، مخافة أن يتحول الباطل حقاً والحق باطلاً، والسنة بدعة، والبدعة سنة، والهدى ضلالاً والضللال هدى، وقد يتوجب الاستدلال على أن الشمس ساطعة في وقت الظهيرة، ليس دونها سحاب.

فقد روى الإمام محمد بن نصر المروزي في «السنة» (١٠٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

«ما من عام إلا يحيا فيه بدعة، ويُمات فيه سنة، حتى تحيا البدع وتموت السنن».

وقد روى هذا الأثر أيضاً ابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (ص: ٣٨-٣٩)،

وابن بطة العكبري في «الإبانة الكبرى» (٢٢٥).

وهذا الأثر وإن كان موقوفاً على ابن عباس، غير أن له حكم الرفع إلى رسول الله

ﷺ؛ إذ لا مسرح فيه للاجتهاد؛ لأنه إخبار عن غيب لا يُقال من قبل الرأي.

أما هذه المسألة العجيبة: فهي ما يتناوله بعض الصبيان ذوي اللّحي ممن

لا يدرون ما يخرج من رؤوسهم، من أن ما كان من الرجل من أهل السنة قبل هدايته

إلى الحق وتبصّره به، مما صدر منه من الزلل أو الانحراف، بكونه كان مع أهل

البدع، أو قال بقولهم في بعض مسائل الشريعة، أو انتصر لهم، ثم تاب الله عليه

فتاب ورجع إلى الحق وأصبح سلفياً سنياً حقاً، أن ما كان منه في حال زلله، يُعتبر مذمة وقبحاً وعاراً وشناراً ملازماً له، ملاحقاً إيّاه، قادحاً في معتقده وسلفيته وسُنَّيته إلى أن يتوفاه الله، ولو رسخت به قدمه حتى صار من رؤوس أهل السنة يذب عنها، ويفضح أهل البدع الذين كان منهم، بعد أن تبرأ منهم عشرات المرات وأعلن البغض لهم!!!، وأن الذي كان من بداية التزامه على الجادة أفضل منه وأظھر؛ وأن العبرة إنما هي ببداية الحال لا بنهايته!!

غير أن الحكيم الخبير العليم يفضح السفهاء على ألسنتهم، ويكشف جهلهم بهم، ويبرهن بأدلتهم التي يستدلون بها على ما ذهبوا إليه من الهوس، على ضلالهم وزيغهم وانحرافهم؛ وذلك لأن مآل قولهم هذا يؤدي بهم إلى الكفر بالله العظيم؛ على ما سيظهر بإذن الله من مسائل هذا البحث.

ولكن لما قدر الله لهذا العبث والهوس والجنون، أن ينطق به بعض السفهاء، وينتشر بينهم في لباس الحق، في مناخ نزع منه العلم وبُت فيه الجهل، وعلا وظهر على منارات الباطل، فحق لمن من الله عليه بملكة التصنيف أن يُصنّف مُصنِّفاً يُجَلِّي فيه الأمر ويفرق فيه بين الحق والباطل، ويكُتِّب به الأبعدُ السفيه.

● خطة البحث:

ولقد أقيمت الكلام في هذا المُصنّف على فصلين تحتها جملة مسائل:
الفصل الأول: تحرير القول في بيان ما يُعتبر في الحكم على الرجال، وتحتة عشر فوائد.

الفصل الثاني: طلبة التجهيل بين الجهل المركب والبسيط.

وقد فصلت جملة النقاط المتفرّعة من الفصلين في فهرس الكتاب فراجعها إن كنت متعجلاً لمضمون الكتاب، وإلا فانتظر حتى تأتيك في حينها، وهو أحبه إليّ؛ ولذلك اخترته لك.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

الفصل الأول

تحرير القول في بيان ما يُعتَبَرُ في الحكم على الرجال

● تناول الموضوع من خلال كلام جليل لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

سُئِلَ شيخ الإسلام ابن تيمية الإمام الجيهنذ بحر العلوم عن يونس عليه السلام ذي النون وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وما كان منه ودعاؤه ربّه بالاستغفار، فأجاب شيخ الإسلام إجابة طويلة مستفيضة مليئة بالعلم والنور في «مجموع الفتاوى» (٢٣٧/١٠) إلى (٣٣٦/١٠) في مائة صفحة كاملة، فكان من أطيب كلامه:

● بداية الكلام وما كان من يونس بن متى عليه السلام ^(١):

«وقوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فيه اعتراف بحقيقة حاله، وليس لأحد من العباد أن يبرئ نفسه عن هذا الوصف، لا سيما في مقام مناجاته لربه. وقد ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى» ^(٢).

وقال: «من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب» ^(٣).

فمن ظنَّ أنه خير من يونس بن متى بحيث يعلم أنه ليس عليه أن يعترف بظلم نفسه فهو كاذب؛ ولهذا كان سادات الخلائق لا يفضلون أنفسهم على يونس في هذا المقام، بل يقولون: كما قال أبوهم آدم وخاتهم عليهن السلام.

(١) كل العناوين التي على كلام شيخ الإسلام هي من عندي.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣٣٩٥)، ومسلم (٢٣٧٦/١٦٦).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤٦٠٤).

فقوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراف بالذنب وهو استغفار، فإن هذا الاعتراف متضمن طلب المغفرة... والله تعالى لم يذكر في القرآن شيئاً من ذلك عن نبيٍّ من الأنبياء إلا مقروناً بالتوبة والاستغفار، كقول آدم وزوجته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقول نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وقول الخليل ﷺ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وقول موسى: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [٥٥١]، و﴿أَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥-١٥٦]، وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]، وقوله: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقوله تعالى عن داود: ﴿فَاسْتَغْفِرْ رَبِّي وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [٢٤]، فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مِثَاقٍ﴾ [ص: ٢٤-٢٥]، وقوله تعالى عن سليمان: ﴿اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥] (١).

● [تبرئة يوسف ﷺ مما نسب إليه:]

وأما يوسف الصديق، فلم يذكر الله عنه ذنباً، فلهذا لم يذكر الله عنه ما يناسب الذنب من الاستغفار، بل قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّحِلِّينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فأخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء، وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء.

وأما قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]:

فالهَمُّ اسم جنس تحتته نوعان؛ كما قال الإمام أحمد: الهم هَمَانٌ: همَّ خطرات، وهمَّ إصرار؛ وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «أن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه وإذا تركها لله كتبت له حسنة وإن عملها كتبت له سيئة واحدة» (٢) وإن

(١) قلت: ويكفي الاستدلال في هذا السياق بقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [٣١] ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢] فظاهر الآيتين أنه ﷺ عصى ثم تاب الله عليه، وهو من أقوى الأدلة في هذا الباب.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦٤٩١)، ومسلم (٢٠٧/١٣).

تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة، ويوسف عليه السلام هم همًا تركه لله، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه، وذلك إنما يكون إذا قام المقتضي للذنب وهو الهم، وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله. فيوسف عليه السلام لم يصدر منه إلا حسنة يثاب عليها؟ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وأما ما ينقل: من أنه حلّ سراويله، وجلس مجلس الرجل من المرأة، وأنه رأى صورة يعقوب عاضًا على يده، وأمثال ذلك، فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذبًا على الأنبياء وقدحًا فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله، لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا عليه السلام حرفًا واحدًا.

وقوله: ﴿وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣]، فمن كلام امرأة العزيز؛ كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة لا يرتاب فيها من تدبر القرآن؛ حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِهِ فَمَا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَعَلَهُ مَا بَالُ اللِّسَوَةِ الَّتِي قَطَعَنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتُ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنِ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ ﴿وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿يوسف: ٥٠-٥٣﴾، فهذا كله كلام امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك، ولا سمع كلامه ولا رآه، ولكن لما ظهرت براءته في غيبته - كما قالت امرأة العزيز: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: لم أخنه في حال مغيبه عني، وإن كنت في حال شهوده راودته - فحينئذ: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِهِ أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

وقد قال كثير من المفسرين: إن هذا من كلام يوسف، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول، وهو قول في غاية الفساد ولا دليل عليه؛ بل الأدلة تدل على نقيضه.

● والمقصود هنا : أن ما تضمنته «قصة ذي النون» مما يلام عليه كله مغفور ، بَدَّلَهُ اللَّهُ بِهِ حَسَنَاتٍ ؛ ورفع درجاته ، وكان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع ؛ قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن تَدَارَكُوهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [القلم: ٤٨-٥٠] ، وهذا بخلاف حال التقام الحوت ، فإنه قال : ﴿ فَالْقَمَّةُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصفات: ١٤٢] ، فأخبر أنه في تلك الحال مُلِيمٌ ، و«المُليم» الذي فعل ما يُلام عليه ، فالملام في تلك الحال لا في حال نبذه بالعراء وهو سقيم ، فكانت حاله بعد قوله : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]^(١) أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان ؛ والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في البداية ، والأعمال بخواتيمها .

والله تعالى خلق الإنسان وأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، ثم علّمه فنقله من حال النقص إلى حال الكمال ، فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال ، بل الاعتبار بحال كماله ، ويونس عليه السلام وغيره من الأنبياء في حال النهاية حالهم أكمل الأحوال .

● [بيان غلط من فضل الملائكة على الأنبياء والصالحين لاعتبارهم بداية

الصالحين:]

ومن هنا غلط من غلط في تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين ، فإنهم اعتبروا كمال الملائكة مع بداية الصالحين ونقصهم فغلطوا ، ولو اعتبروا حال الأنبياء والصالحين بعد دخول الجنان ورضا الرحمن ، وزوال كل ما فيه نقص وملام ، وحصول كل ما فيه رحمة وسلام ، حتى استقر بهم القرار : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤] ؛ فإذا اعتبرت تلك الحال ، ظهر فضلها على حال غيرهم من المخلوقين ، وإلا فهل يجوز لعاقل أن يعتبر

(١) ولما قتل موسى عليه السلام الرجل الذي وكزه قال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾ [القصص: ١٦] ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَا مَرْيَمُ إِنَّكِ عَلَىٰ غَيْرِ الْحَقِّ وَتَوَسَّعَتْ يَدَاكِ عَلَىٰ سُورٍ وَإِنَّكِ عَلَىٰ كَفْرٍ مُّبِينٍ ﴾ [القصص: ١٩] .

حال أحدهم قبل الكمال في مقام المدح والتفضيل والبراءة من النقائص والعيوب؟! ولو اعتبر ذلك، لا اعتبر أحدهم وهو نطفة ثم علقته ثم مضغته، ثم حين نُفخت فيه الروح، ثم هو وليد، ثم رضيع ثم فطيم، إلى أحوال آخر؛ فعلم أن الواحد في هذه الحال لم تقم به صفات الكمال التي يستحق بها كمال المدح والتفضيل، وتفضيله بها على كل صنف وجيل؛ وإنما فضله باعتبار المآل عند حصول الكمال.

● [بيان خطأ من ظن أن من ولد على الإسلام فلم يكفر أفضل ممن كان كافراً

ثم أسلم:]

وما يظنه بعض الناس أنه من ولد على الإسلام فلم يكفر قط أفضل ممن كان كافراً فأسلم ليس بصواب، بل الاعتبار بالعاقبة، وأيهما كان أتقى لله في عاقبته كان أفضل؛ فإنه من المعلوم، أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا بالله ورسوله بعد كفرهم، هم أفضل ممن ولد على الإسلام من أولادهم وغير أولادهم، بل من عرف الشرّ وذاقه، ثم عرف الخير وذاقه، فقد تكون معرفته بالخير ومحبته له ومعرفته بالشر وبغضه له، أكمل ممن لم يعرف الخير والشرّ ويذوقهما كما ذاقهما، بل من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف أنه شرّ، فإما أن يقع فيه، وإما أن لا يُنكره كما أنكره الذي عرفه؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية»^(١).

وهو كما قال عمر؛ فإن كمال الإسلام هو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله، ومن نشأ في المعروف لم يعرف غيره، فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علمه، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم؛ ولهذا يوجد الخبير بالشر وأسبابه إذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز عنه ومنع أهله والجهاد لهم ما ليس عند غيره.

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٣١٣٩)، وابن سعد في الطبقات (٦/١٢٩)، وأبو نعيم في الحلية (٧/٢٤٣) بلفظ: «قد علمت وربّ الكعبة متى تهلك العرب؟!» فقام إليه رجل من المسلمين فقال: متى يهلكون يا أمير المؤمنين؟ قال: «حين يسوس أمرهم من لم يعالج الجاهلية، ولم يصحب الرسول».

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم أعظم إيماناً وجهاداً ممن بعدهم؛ لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر؛ لما علموه من حسن حال الإسلام والإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي؛ ولهذا يوجد من ذاق الفقر والمرض والخوف، أحرص على الغنى والصحة والأمن ممن لم يذق ذلك؛ ولهذا يقال: «الضدّ يظهر حسنه الضد»، ويقال: «وبضدها تتبين الأشياء».

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «لست بخبّ ولا يخذعني الخبّ».

فالقلب السليم المحمود هو الذي يريد الخير لا الشر، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشر، فأما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يمدح به.

وليس المراد أن كل من ذاق طعم الكفر والمعاصي يكون أعلم بذلك وأكره له ممن لم يذقه مطلقاً، فإن هذا ليس بمطرد، بل قد يكون الطيب أعلم بالأمراض من المرضى، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أطباء الأديان؛ فهم أعلم الناس بما يصلح القلوب ويُفسدها، وإن كان أحدهم لم يذق من الشرّ ما ذاقه الناس^(١).

ولكن المراد: أن من الناس من يحصل له بذوقه الشر من المعرفة به والنفور عنه والمحبة للخير إذا ذاقه ما لا يحصل لبعض الناس، مثل من كان مشرّكاً أو يهودياً أو نصرانياً، وقد عرف ما في الكفر من الشبهات والأقوال الفاسدة والظلمة والشر، ثم شرح الله صدره للإسلام وعرفه محاسن الإسلام؛ فإنه قد يكون أرغب فيه وأكره للكفر من بعض من لم يعرف حقيقة الكفر والإسلام؛ بل هو معرض عن بعض حقيقة هذا وحقيقة هذا أو مقلد في مدح هذا وذم هذا.

ومثال ذلك: من ذاق طعم الجوع، ثم ذاق طعم الشبع بعده، أو ذاق المرض ثم ذاق طعم العافية بعده، أو ذاق الخوف ثم ذاق الأمن بعده، فإن محبة هذا ورغبته في العافية والأمن والشبع، ونفوره عن الجوع والخوف والمرض أعظم ممن لم يُبتل بذلك ولم يعرف حقيقته.

(١) قلت: وإنما أصل معرفة الأنبياء بالوحي؛ لأنهم لا ينطقون عن الهوى بل هم ينطقون بالوحي، وهذا منتفٍ في حق الناس، فافترقوا.

● [وكذلك من دخل مع أهل البدع فحالته أفضل ممن لم يدخل:]

وكذلك من دخل مع أهل البدع والفجور، ثم بين الله له الحق وتاب عليه توبة نصوحاً، ورزقه الجهاد في سبيل الله، فقد يكون بيانه لحالهم، وهجره لمساويهم؛ وجهاده لهم أعظم من غيره.

قال نعيم بن حماد الخزاعي - وكان شديداً على الجهمية - : أنا شديد عليهم؛ لأنني كنت منهم.

● [ذكر الأمثلة على ما يبين ذلك من أحوال الصحابة رضي الله عنهم]:

وقد قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠] نزلت هذه الآية في طائفة من الصحابة كان المشركون فتنوهم عن دينهم، ثم تاب الله عليهم، فهاجروا إلى الله ورسوله؛ وجاهدوا وصبروا^(١).

وكان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما من أشد الناس على الإسلام، فلما أسلما تقدما على من سبقهما إلى الإسلام، وكان بعض من سبقهما دونهما في الإيمان والعمل الصالح بما كان عندهما من كمال الجهاد للكفار والنصر لله ورسوله، وكان عمر لكونه أكمل إيماناً وإخلاصاً وصدقاً ومعرفةً وفراسةً ونوراً، أبعد عن هوى النفس وأعلى همة في إقامة دين الله، مقدماً على سائر المسلمين غير أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين.

وهذا وغيره مما يبين أن الاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية . . .

فإن دين محمد صلى الله عليه وسلم في التوبة جاء بما لم يجيء به شرع من قبله؛ ولهذا قال: «أنا نبي الرحمة؛ وأنا نبي التوبة^(٢)»، وقد رُفِعَ به من الآصار والأغلال ما كان على من

(١) رواه البزار في مسنده (٢٢٠٤)، والطبري في جامعه (٢١٨٨٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٨/٧): «روى البخاري بعضه، ورواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن شريك وهو ثقة». اهـ، والحديث في المجمع رقم (١٠٩٤٨) عند سورة النساء عن ابن عباس.

(٢) رواه مسلم (١٢٦/٢٣٥٥).

قبلنا ، وقد قال تعالى في كتابه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] . . . وقد قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠] ، فإذا كان الله يبدل سيئاتهم حسنات ، فالحسنات توجب مودة الله لهم ، وتبديل السيئات حسنات ليس مختصاً بمن كان كافراً ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧] ، قال أبو العالية : سألت أصحاب رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقالوا لي : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب . . .

ومن علم أن ما أتاه ذنب ثم تاب ، فلا بد أن يبدل وصفه المذموم بالمحمود ، فإذا كان يُبغض الحق فلا بد أن يحبه ، وإذا كان يحب الباطل فلا بد أن يبغضه ، فما يأتي به التائب من معرفة الحق ومحبته والعمل به ، ومن بغض الباطل واجتنابه ، هو من الأمور التي يحبها الله تعالى ويرضاها ، ومحبة الله كذلك بحسب ما يأتي به العبد من محابه ، فكل من كان أعظم فعلاً لمحبوب الحق ، كان الحق أعظم محبة له ، وانتقاله من مكروه الحق إلى محبوبه مع قوة بغض ما كان عليه من الباطل وقوة حب ما انتقل إليه من حب الحق ، فوجب زيادة محبة الحق له ومودته إياه ، بل يبدل الله سيئاته حسنات ؛ لأنه بدل صفاته المذمومة بالمحمودة فيبدل الله سيئاته حسنات ، فإن الجزاء من جنس العمل ، وحينئذ فإذا كان إتيان التائب بما يحبه الحق أعظم من إتيان غيره كانت محبة الحق له أعظم ، وإذا كان فعله لما يودّه الله منه أعظم من فعله له قبل التوبة .

● [بيان خطأ قول الروافض: إن الله لا يبعث نبياً إلا من كان معصوماً قبل

النبوة:]^(١)

وبهذا يظهر جواب شبهة من يقول: إن الله لا يبعث نبياً إلا من كان معصوماً قبل

(١) كما ذكرت في بداية كلام شيخ الإسلام أن كل ما عنونت له من العناوين فإنه من عندي لبيان المراد من كل فقرة بخصوصيتها ، مما يساعد على حسن الفهم .

النبوة، كما يقول ذلك طائفة من الرافضة وغيرهم، وكذلك من قال: إنه لا يبعث نبياً إلا من كان مؤمناً قبل النبوة، فإن هؤلاء توهموا أن الذنوب تكون نقصاً وإن تاب التائب منها وهذا منشأ غلطهم.

فمن ظن أن صاحب الذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصاً فهو غالط غلطاً عظيماً، فإن الذم والعقاب الذي يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منه شيء أصلاً؛ لكن إن قدم التوبة لم يلحقه شيء، وإن أخر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنوب والتوبة من الذم والعقاب ما يناسب حاله.

والأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - كانوا لا يؤخرون التوبة؛ بل يسارعون إليها ويسابقون إليها؛ لا يؤخرون ولا يصرون على الذنب، بل هم معصومون من ذلك، ومن أخر ذلك زمناً قليلاً كفر الله ذلك بما يبتليه به، كما فعل بذي النون عليه السلام، هذا على المشهور أن إلقاءه كان بعد النبوة.

والتائب من الكفر والذنوب قد يكون أفضل ممن لم يقع في الكفر والذنوب، وإذا كان قد يكون أفضل، فالأفضل أحق بالنبوة ممن ليس مثله في الفضيلة.

● [ذكر الأدلة: على أن الله قد بعث أنبياء كانوا قبل البعثة كفاراً:]

وقد أخبر الله عن إخوة يوسف بما أخبر من ذنوبهم وهم الأسباط الذين نبأهم الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿فَأَمَّنَ لَهُمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]. فآمن لوط لإبراهيم عليه السلام، ثم أرسله الله تعالى إلى قوم لوط، وقد قال تعالى في قصة شعيب: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ [١٨٨] قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [١٣٣] وَلَسْكَنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعَبَدَ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

وإذا عرف أن الاعتبار بكمال النهاية، وهذا الكمال إنما يحصل بالتوبة

والاستغفار، ولا بد لكل عبد من التوبة وهي واجبة على الأولين والآخرين، كما قال تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣].

* وقد أخبر الله سبحانه بتوبة آدم ونوح ومن بعدهما إلى خاتم المرسلين محمد ﷺ وآخر ما نزل عليه - أو: من آخر ما نزل عليه - قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿٦٠﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٦١﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها:

«أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمديك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن»^(١).

وقد أنزل الله عليه قبل ذلك: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه كان يقول:

«يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فوالذي نفسي بيده إنني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(٢).

وفي صحيح مسلم عن الأغر المزني عن النبي ﷺ أنه قال:

«إنه ليغان على قلبي، وإنني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»^(٣).

وفي السنن عن ابن عمر أنه قال:

«كنّا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول: «رب اغفر لي وتب علي

إنك أنت التواب الغفور» مائة مرة»^(٤).

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤/٢١٧).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦٣٠٧).

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢٧٠٢/٤١).

(٤) رواه الترمذي في سننه (٣٤٣٤) وقال: «حسن صحيح غريب»، وأبو داود في سننه (١٥١٦)،

وابن ماجه في سننه (٣٨١٤).

وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه كان يقول :

«اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير»^(١).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال :

يا رسول الله أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول؟ قال : «أقول : اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني بالثلج والبرد والماء البارد»^(٢).

وفي صحيح مسلم وغيره أنه كان يقول نحو هذا إذا رفع رأسه من الركوع^(٣).

وفي صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعاء الاستفتاح :

«اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت»^(٤).

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه كان يقول في سجوده :

«اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، علانيته وسره، أوله وآخره»^(٥).

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩/٧٠).

(٢) البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨/١٤٧).

(٣) رواه مسلم (٤٧٦/٢٠٤) باب ما يقول إذا رفع رأسه من السجود وفيه : «... اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد، اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما يُنقى الثوب الأبيض من الوسخ».

(٤) رواه مسلم (٧٧١/٢٠١).

(٥) رواه مسلم (٤٨٣/٢١٦).

وفي السنن عن علي: أن النبي ﷺ أتى بدابة ليركبها وأنه حمد الله وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٣-١٤]، ثم كبره وحمده ثم قال: «سبحانك ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» ثم ضحك! وقال: «إن الربَّ يعجب من عبده إذا قال: اغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، يقول: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب إلا أنا»^(١).

وقد قال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢].

وثبت في الصحيحين في حديث الشفاعة: «أن المسيح يقول: اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»^(٢).

وفي الصحيح: أن النبي ﷺ كان يقوم حتى ترم قدماه فيقال له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(٣).

● [المنازعون يتأولون الأدلة المذكورة تأويل الجهمية:]

ونصوص الكتاب والسنة في هذا الباب كثيرة متظاهرة، والآثار في ذلك عن الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين كثيرة.

لكن المنازعون يتأولون هذه النصوص من جنس تأويلات الجهمية والباطنية كما فعل ذلك من صنف في هذا الباب.

● [بيان فساد هذا التأويل:]

وتأويلاتهم تبين لمن تدبرها أنها فاسدة؛ من باب تحريف الكلم عن مواضعه، كتأويلهم قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، المتقدم ذنب آدم، والمتأخر ذنب أمته، وهذا معلوم البطلان، ويدل على ذلك وجوه:

أحدها: أن آدم قد تاب الله عليه قبل أن ينزل إلى الأرض فضلاً عن عام الحديدية

(١) رواه أبو داود في سننه (٢٦٠٢)، والترمذي في سننه (٣٤٤٦) وقال: «حسن صحيح».

(٢) البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (٣٢٢/١٩٣).

(٣) رواه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩/٧٠)، (٢٨٢٠/٨١).

الذي أنزل الله فيه هذه السورة، قال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَبَىٰ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢]، وقال: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقد ذكر أنه قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

والثاني: أن يقال: فآدم عندكم من جملة موارد النزاع ولا يحتاج أن يغفر له ذنبه عند المنازع فإنه نبيٌّ أيضاً، ومن قال: إنه لم يصدر من الأنبياء ذنب يقول ذلك عن آدم ومحمد وغيرهما.

الوجه الثالث: أن الله لا يجعل الذنب ذنباً لمن لم يفعله، فإنه هو القائل: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]، فمن الممتنع أن يضاف إلى محمد ﷺ ذنب آدم ﷺ أو أمته أو غيرهما، وقد قال تعالى: ﴿فَأَنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَقَتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]، ولو جاز هذا لجاز أن يضاف إلى محمد ذنوب الأنبياء كلهم، ويقال: إن قوله ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] المراد: ذنوب الأنبياء وأممهم قبلك، فإنه يوم القيامة يشفع للخلائق كلهم، وهو سيد ولد آدم، وقال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وآدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة، أنا خطيب الأنبياء إذا وفدوا وإمامهم إذا اجتمعوا»^(١)؛ وحينئذ فلا يختص آدم بإضافة ذنبه إلى محمد، بل تجعل ذنوب الأولين والآخرين على قول هؤلاء ذنوباً له. فإن قال: إن الله لم يغفر ذنوب جميع الأمم، قيل: وهو أيضاً لم يغفر ذنوب جميع أمته.

الوجه الرابع: أنه قد ميّز بين ذنبه وذنوب المؤمنين بقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] فكيف يكون ذنب المؤمنين ذنباً له؟!

الوجه الخامس: أنه ثبت في الصحيح أن هذه الآية لما نزلت قال الصحابة: يا رسول الله هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]^(٢)، فدل ذلك على أن الرسول والمؤمنين علموا

(١) رواه مسلم (٣/٢٢٧٨).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (١٧٦٠)، والترمذي في سننه (٣٢٦٣) وقال: «حسن صحيح»، والبخاري في صحيحه (٤١٧٢).

أن قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مختصٌّ به دون أمته .

الوجه السادس: أن الله لم يغفر ذنوب جميع أمته، بل قد ثبت أن من أمته من يعاقب بذنوبه إما في الدنيا وإما في الآخرة، وهذا مما تواتر به النقل، وأخبر به الصادق المصدوق، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وشوهد في الدنيا من ذلك ما لا يحصىه إلا الله، وقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، والاستغفار والتوبة قد يكونان من ترك الأفضل، فمن نقل إلى حال أفضل مما كان عليه قد يتوب من الحال الأول، لكن الذم والوعيد لا يكون إلا على ذنب. اهـ

● بيان الكلية المأخوذة من حديث: «كل بني آدم خطاء»:

قلت: ويؤكد ما رجّحه الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية بالأدلة المعتبرة؛ هذه الكلية التي نطق بها رسول الله ﷺ والتي لا يخرج منها أحد من بني آدم حتى الأنبياء والمرسلين، وهو ما رواه أحمد في المسند (١٢٩٨٣) والترمذي في سننه (٢٤٩٩) وصححه، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي وابن ماجه، من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»، وأخرجه السيوطي في «الجامع الصغير» (٦٢٩٢) وصححه، وليّنه الذهبي.

قال المناوي في فيض القدير (٥/٢٦):

«لكن انتصر ابن القطان لتصحيح الحاكم وقال ابن مسعدة صالح الحديث، وغرابته إنما هي فيما انفرد به عن قتادة». اهـ

● الفوائد المستنبطة ممّا أصله شيخ الإسلام بالكتاب والسنة والإجماع:

إن المتأمل في كلام العلامة الجهبذ أبي العباس تقي الدين أحمد ابن تيمية رضي الله عنه، ليعلم أنه قد حقق المسألة تحقيقاً قوياً استدل فيها بالأدلة المعتبرة الصحيحة الصريحة، فأتى كلامه غاية في التوفيق والسداد، وهذا حال كل من تجرّد للدليل يسير معه حيث سار به وعلى ضوئه يعتقد، ولا سبيل لصلاح الاعتقاد إلا هذا، وهو أن يتقدم الاستدلال على الاعتقاد، ثم لا تُلوّى أعناق النصوص لتخضع لمذهب ما قد اتخذه أصحابه وقالوا به وتعصبوا له؛ على وفق الهوى لا

على وفق الديانة ومنهج الاستدلال الصحيح؛ وذلك لأن تنزيل الأقوال على الأدلة المعتمدة تُلزم المُنْصِف القول بها، ولو استغربها الناس؛ لعدم تحقيق المسألة من قبل، أو لقلّة الإلمام بأدلة الأحكام لمسائل الشريعة، أو للجهل بمنهج الاستنباط الصحيح، أما هذه الفوائد فهي كالتالي:

● الفائدة الأولى: مسألة عصمة الأنبياء في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة أمرٌ

مختلفٌ فيه:

واعلم أن الأصل الذي أقام عليه شيخ الإسلام كلامه هنا هو: مسألة عصمة الأنبياء في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة؛ حيث قال في «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٨٩-٢٩٥):

«والكلام في هذا المقام مبني على أصل، وهو: أن الأنبياء -صلوات الله عليهم- معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة؛ ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه، كما قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٣١﴾ فَإِن ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ سَبِكْفِكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿البقرة: ١٣٦-١٣٧﴾، وقال: ﴿وَلَكِنَّ الْآلِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴿البقرة: ١٧٧﴾، وقال: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿البقرة: ٢٨٥﴾، بخلاف غير الأنبياء فإنهم ليسوا معصومين كما عصم الأنبياء ولو كانوا أولياء لله . . . وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة، . . . وأما العصمة في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة فللناس فيه نزاع، هل هو ثابت بالعقل أو بالسمع؟

ومتنازعون في العصمة من الكبائر والصغائر أو من بعضها، أم هل العصمة إنما هي في الإقرار عليها لا في فعلها؟ أم لا يجب القول بالعصمة إلا في التبليغ فقط؟ وهل تجب العصمة من الكفر والذنوب قبل المبعث أم لا؟

والقول الذي عليه جمهور الناس ، وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف : إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقاً ، والردّ على من يقول : إنه يجوز إقرارهم عليها ، وحجج القائلين بالعصمة إذا حررت ، إنما تدل على هذا القول .
وحجج النفاة لا تدل على وقوع ذنب أقر عليه الأنبياء ، فإن القائلين بالعصمة احتجوا بأن التأسّي بهم مشروع ، وذلك لا يجوز إلا مع تجويز كون الأفعال ذنوباً ، ومعلوم أن التأسّي بهم إنما هو مشروع فيما أقرّوا عليه دون ما نُهوا عنه ورجعوا عنه ، كما أن الأمر والنهي إنما تجب طاعتهم فيما لم ينسخ منه ، فأما ما نُسخ من الأمر والنهي فلا يجوز جعله مأموراً به ولا منهياً عنه ، فضلاً عن وجوب اتباعه والطاعة فيه .

● [الفائدة الثانية: متى تكون الذنوب منافية للكمال؟]

وكذلك ما احتجوا به من أن الذنوب تنافي الكمال ، أو أنها ممن عظمت عليه النعمة أقبح ، أو أنها توجب التنفير أو نحو ذلك من الحجج العقلية ، فهذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وعدم الرجوع ، وإلا فالتوبة النصوح التي يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه ، كما قال بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة .

وقال آخر : لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه .

وقد ثبت في الصحاح حديث التوبة : «لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً»^(١) . . . إلخ .

وقد قال تعالى : ﴿وَمَلَأَ الْإِنسَانَ ظُلُومًا جَهُولًا ۖ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾ [الأحزاب : ٧٢-٧٣] ؛ فغاية كل إنسان أن يكون من المؤمنين والمؤمنات الذين تاب الله عليهم .

وفي الكتاب والسنة الصحيحة ، والكتب التي أنزلت قبل القرآن مما يوافق هذا

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦٣٠٨) ، ومسلم (١/٢٦٧٥) .

القول ما يتعذر إحصاؤه .

والرادون لذلك تأولوا ذلك بمثل تأويلات الجهمية والقدرية والدهرية لنصوص الأسماء والصفات ونصوص القدر ونصوص المعاد، وهي من جنس تأويلات القرامطة الباطنية التي يُعلم بالاضطرار أنها باطلة، وأنها من باب تحريف الكلم عن مواضعه، وهؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء فيقع في تكذيبهم، ويريد الإيمان بهم فيقع في الكفر بهم .

ثم إن العصمة المعلومة بدليل الشرع والعقل والإجماع، وهي العصمة في التبليغ لم ينتفعوا بها؛ إذ كانوا لا يُقرّون بموجب ما بلغته الأنبياء، وإنما يقرّون بلفظ حرفوا معناه، أو كانوا فيه كالأُميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أُماني، والعصمة التي كانوا ادّعوا، لو كانت ثابتة لم ينتفعوا بها، ولا حاجة بهم إليها عندهم، فإنها متعلقة بغيرهم لا بما أمروا بالإيمان به، فيتكلم أحدهم فيها على الأنبياء بغير سلطان من الله، ويدع ما يجب عليه من تصديق الأنبياء وطاعتهم، وهو الذي تحصل به السعادة وبضده تحصل الشقاوة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤]. اهـ

● الفائدة الثالثة: بيان وجه الدلالة التي استدلل بها ابن تيمية على أن الله

بعث بعض الأنبياء كانوا قبل البعثة كفارًا:

قلت: برهن شيخ الإسلام هنا على ما ترجح عنده والذي هو قول جمهور الناس من أهل العلم: أن العصمة للأنبياء في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة إنما هي من الإقرار على الذنوب مطلقًا، ثم بين أن العصمة من الكفر غير ثابتة بدليل؛ وذلك قبل البعثة، ثم بين شيخ الإسلام الأدلة على ذلك فيما ذكرته من قبل، حيث ذكر قوله تعالى: ﴿فَأَمَّن لَّمْ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦] ووجه الدلالة من الآية بمفهوم المخالفة الذي هو دليل الخطاب، أن لوطًا عليه السلام لم يكن مؤمنًا قبل ذلك، وأكد ذلك بقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ وَيَشْعِبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٢٦﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩].

ووجه الدلالة من الآية في قوله: ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ فإنما يكون العود إلى أمر كان من قبل، أي أن شعيباً عليه السلام والذين آمنوا معه كانوا على ملة الكفر، ويبرهن ذلك قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ بَجْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾ ثم أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣] فبين ظاهر الآية بلفظ الجمع أن طائفة وجماعة من الرسل كانوا على ملة قومهم من الكفر ثم اصطفاهم الله، وهذا حال الصحابة الكرام فليس ذلك بقبیح كما قال شيخ الإسلام .

ولأن الألفاظ صريحة في ذلك وصرف اللفظ عن ظاهره بدون دليل لا يجوز؛ وقد اتهم شيخ الإسلام من تأوّل هذه النصوص على غير ظاهرها أنه سلك مسلك الجهمية والباطنية والقدرية والدهرية لنصوص الأسماء والصفات ونصوص القدر والمعاد وأنها كذلك من جنس تأويلات القرامطة، وأنها من باب تحريف الكلم عن مواضعه .

واستدل أيضاً بصنيع إخوة يوسف بما قاموا به من الكذب والمكر والخداع مع يوسف وإبعاده عن أبيه يعقوب عليه السلام، وكان هذا قبل أن يوحى إليهم، ولذلك أكثر شيخ الإسلام في النقل الأول من آيات وأحاديث التوبة، وأنها تمحو ما قبلها، بل تحوّل السيئات إلى حسنات .

وأكد ابن تيمية ذلك، وذكر أن غيره هو منهج الروافض حيث قال، كما مرّ من «مجموع الفتاوى» (٣٠٩ / ١٠):

«وبهذا يظهر جواب شبهة من يقول: إن الله لا يبعث نبياً إلا من كان معصوماً قبل النبوة، كما يقول ذلك طائفة من الرافضة وغيرهم، وكذلك من قال: إنه لا يبعث نبياً إلا من كان مؤمناً قبل النبوة، فإن هؤلاء توهموا أن الذنوب تكون نقصاً وإن تاب التائب منها وهذا منشأ غلطهم .

فمن ظن أن صاحب الذنوب مع التوبة النصح يكون ناقصاً فهو غلط غلطاً عظيماً، فإن الدم والعقاب الذي يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منه شيء أصلاً؛ لكن إن قدم التوبة لم يلحقه شيء، وإن أخر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنوب والتوبة من الدم والعقاب ما يناسب حاله .

والأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - كانوا لا يؤخرون التوبة؛ بل يسارعون إليها ويسابقون إليها؛ لا يؤخرون ولا يصرون على الذنب، بل هم معصومون من ذلك، ومن آخر ذلك زمنًا قليلًا كفر الله ذلك بما يبتليه به، كما فعل بذي النون عليه السلام، هذا على المشهور أن إلقاءه كان بعد النبوة.

والتائب من الكفر والذنوب قد يكون أفضل ممن لم يقع في الكفر والذنوب، وإذا كان قد يكون أفضل، فالأفضل أحق بالنبوة ممن ليس مثله في الفضيلة». اهـ

قلت: يؤكد ما قرره ابن تيمية أن ما نقل من الإجماع في عصمة الأنبياء من الكفر والكبائر إنما هو بعد النبوة: نقل الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١١/٣٧١)، والنووي في «شرح مسلم» (٢/١٥٠) عن القاضي عياض قال: «لا خلاف في أن الكفر ليس بجائر على الأنبياء بعد النبوة، وهم معصومون منه». اهـ

وكذلك نقل القاضي عياض الإجماع، كما في «فتح الباري» (٨/٥٦)، و«شرح مسلم» (٢/١٥٠-١٥١) على عصمة الأنبياء من المعاصي فقال:

«إن الأنبياء معصومون من الصغائر التي تزي بفاعلها وتحط منزلته، وتسقط مروءته». اهـ

وكذلك نقل عياض كما في «الفتح» (٣/٧٨١) إجماعًا آخر فقال:

«اتفقوا على أن ما كان طريقه الإبلاغ في القول، فإن الأنبياء معصومون على كل حال». اهـ

ونقل النووي في «شرح مسلم» (٨/٤٨٠) إجماعًا آخر فقال:

«ظن السوء بالأنبياء كفر بالإجماع». اهـ

[بواسطة: «موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي» (٣/١١٥٠-١١٥٣) مادة:

«نبوة».]

قلت: هذه جملة الإجماعات فيما يتعلق بالأنبياء في هذه المسألة، وكلها بعد النبوة والبعثة لا قبلها، فثبت عدم وجود إجماع على العصمة قبل البعثة، وإذا وجد الخلاف، فالأمر مرجعه حينئذ إلى تحقيق القول على وفق ظواهر الأدلة التي لم يصرفها صارف عن ظاهرها، والله أعلم.

● حال المهدي المنتظر وقد أصلحه الله في ليلة:

قلت: كذلك، فقد روى الإمام أحمد في مسنده (٦٤٥) بسند صححه الشيخ أحمد شاكر، وابن ماجه في سننه (٤٠٨٥) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٤١٥٩)، والصحيحه (٢٣٧١)، وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٩٢٤٣) ورمز لحسنه، من حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«المهديُّ منَّا أهل البيت، يُصلحه الله في ليلة».

قال السندي في شرحه على سنن ابن ماجه (٤/٤١٣):

«قوله: «يصلحه الله في ليلة» قال ابن كثير: أي يتوب عليه ويوفقه ويلهمه رشده بعد أن لم يكن كذلك». اهـ

قلت: وهو الرجل الذي يملأ الله به الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً.

فقد روى أبو داود في سننه (٤٢٧٦) والترمذي في سننه (٢٢٣٠، ٢٢٣١) وقال: «حسن صحيح»، والحاكم في المستدرک (٨٣٦٤) وصححه ووافقه الذهبي من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«لا تذهب الأيام والليالي [وفي رواية] لا تذهب الدنيا، حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً».

ولذلك ذكر ابن تيمية عمر بن الخطاب رضي الله عنه وخالد بن الوليد رضي الله عنه، حيث كانا من أشد الناس على الإسلام حال كفرهم، ثم أصلحهما الله وتاب عليهما فخدما الإسلام خدمة قل أن توجد في صحابي آخر على قدر ما قاما به.

ثم أنزل شيخ الإسلام هذا الكلام على ما هو دون الكفر فقال كما في «مجموع الفتاوى» (٣٠٣/١٠):

«وكذلك من دخل مع أهل البدع والفجور، ثم بين الله له الحق وتاب عليه توبة نصوحاً، ورزقه الجهاد في سبيل الله، فقد يكون بيانه لحالهم، وهجره لمساويهم؛ وجهاده لهم أعظم من غيره».

قال نعيم بن حماد الخزاعي - وكان شديدًا على الجهمية -: أنا شديد عليهم ؛ لأنني كنت منهم .

وقد قال الله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠] نزلت هذه الآية في طائفة من الصحابة كان المشركون فتنوهم عن دينهم ، ثم تاب الله عليهم ، فهاجروا إلى الله ورسوله ؛ وجاهدوا وصبروا . اهـ

● الفائدة الرابعة: إذا كان أمر الكفر أعظم من البدعة فماذا بعد؟!

قلت : وهذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فليست البدعة أعلى درجة في العصيان من الكفر ، بل الكفر أعلى ، فإن وجدت بدعة مكفرة فقد جمعت إلى كونها بدعة الكفر .

فيكون معنى الاستدلال في هذا السياق : أنه إن كان أمر الكفر أعظم بلا خلاف ، ولا يجوز بعد التوبة منه لو لم من حسنت توبته وصلاح إسلامه ، فمن باب أولى لا يجوز ذلك لمن كان من أهل البدع أو معهم ثم تاب الله عليهم .

● الفائدة الخامسة: حال الإمام أبي الحسن الأشعري ونعيم بن حماد شيخ

البخاري:

بل قد يكون ذلك خيراً على الإسلام ، كما كان أبو الحسن الأشعري على منهج الاعتزال أربعين سنة يُنظرُ لهم ويكتبُ ويذُبُّ عن مذهبهم ، ثم تاب الله عليه توبة نصوحاً فكان إماماً لأهل السنة والجماعة يُنظرُ ، ويدافع عن السنة ، ويفضح المعتزلة وأهل الأهواء ويبين ضلالهم الذي ألمَّ به فهمه وأحسن الردّ عليه ، وكُتبه تعتبر مرجعاً لأهل السنة والجماعة ، كما فعل نعيم بن حماد الخزاعي ، وقد مرّ الكلام عليه ، من أنه كان من الجهمية ، ثم صار شديدًا عليهم بعد توبته .

● حال الإمام أبي علي الفضيل بن عياض: كان سارقاً قاطع طريق، ثم أصبح

إماماً في الدين:

ذكر الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٤٢٣ / ٨) في ترجمة الفضيل فقال :

«الإمام القدوة الثبت شيخ الإسلام أبو علي، . . . عن الفضل بن موسى قال: كان الفضيل شاطراً يقطع الطريق، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدار إليها؛ إذ سمع تالياً يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، فلما سمعها قال: بلى يا رب قد آن، فرجع، فأواه الليل إلى خربة، فإذا فيها سابلة، فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نصبح؛ فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا. قال: ففكرت وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين هاهنا يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليه، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام». اهـ

● حال الإمام سفيان الثوري:

وهذا الإمام سفيان الثوري، قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٦٦-٢٠٣/ ت: ١٠٨٣):

«هو شيخ الإسلام إمام الحفاظ سيد العلماء العاملين في زمانه أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد . . . وقال شعبة وابن عيينة وأبو عاصم ويحيى بن معين وغيرهم: سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث . . .

وروى المروزي: عن أحمد بن حنبل قال: أتدري من الإمام؟ الإمام سفيان الثوري، لا يتقدمه أحد في قلبي . . .

قلت: قد كان سفيان رأساً في الزهد والتأله والخوف، رأساً في الحفظ، رأساً في معرفة الآثار، رأساً في الفقه، لا يخاف في الله لومة لائم، من أئمة الدين، واغْتَفَرَ له غيرُ مسألة اجتهد فيها، وفيه تشييعٌ يسير، كان يُثَلَّث بعليٍّ، وهو على مذهب بلده أيضاً في النيذ، ويقال: رجع عن كل ذلك». اهـ

وروى اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤٢) عن الفلكي قال:

«كان عمار بن رزيق، وسلمان بن قرم الضبي، وجعفر بن زياد الأحمر، وسفيان الثوري -أربعتهم- يطلبون الحديث، وكانوا يتشيعون، فخرج سفيان إلى البصرة فلقي أيوب وابن عون فترك التشيع».

وروى اللالكائي أيضًا (٤٣) عن عبد الرحمن بن مهدي قال :

«الناس على وجوه: فمنهم من هو إمام في السنة إمام في الحديث، ومنهم من هو إمام في الحديث، فأما من هو إمام في السنة وإمام في الحديث فسفيان الثوري». .
قلت: والأمثلة على ذلك كثيرة، ويكفيها ما كان من بعض الصحابة رضي الله عنهم فيه الكفاية والغنية.

• الفائدة السادسة:

الضابط المعتبر في الحكم على الرجال بكمال العقاب والمآل التي صاروا إليها وأصبحوا عليها، لا بما جرى لهم في بداية الحال من زلل أو حتى انحراف؛ لأن التوبة تجب ما قبلها، وتحول السيئات حسنات، فمن قال بعكس ذلك فلازم قوله الكفر بالله العظيم.

وبيان وجه ذلك ووجه كفره: أن مقتضى قوله طعن في الأنبياء والمرسلين بداية من آدم عليه السلام، ونوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، ويونس، وموسى، والأسباط، وداود، وسليمان، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ودليل ذلك ما مرّ من الآيات القرآنية والأحاديث الصحاح، ومن ثم، فهو إجماع لا خلاف فيه، أو لا ينبغي أن يكون فيه خلاف؛ وذلك لأن التنقّص من أنبياء الله كفر بواح يوجب القتل الذي يقوم به أولياء الأمور، وهو تنقص للصحابة واتهامهم بالضلال والزيف، وقد قال تعالى: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فالذي يطعن فيمن رضي الله عنهم ورسوله فقد خالف القرآن والسنة وشاقهما فهو كافر، ووجه الطعن كذلك من لازم القول بمخالفة هذه الفائدة .

وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَابِغِهَا يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

قلت : فإذا كان لازم القول غيظاً للصحابة فقد دخل تحت هذه الآية .

قال ابن كثير في تفسيره (٢٣٢ / ٧) :

«ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك - رحمه الله ، في رواية عنه - بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة ، قال : لأنهم يغيظونهم ، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية .

ووافقه طائفة من العلماء على ذلك ، والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة ، ويكفيهم ثناء الله عليهم ، ورضاه عنهم» . اهـ

فإن قال قائل : لازم القول ليس بقول ، قلت : أحسنت هو هذا ، ولكن هذا لمن لم يدرك لازم قوله ، فمن أدركه وقصده فهو لازم له ، فأصبح لازم قوله قولاً له وذلك لأن ذم من كان من أهل السنة والجماعة ؛ لما كان منه قبل الالتزام على المعتقد الصحيح ، يُفهم منه الطعن في صحابة رسول الله ﷺ ؛ لأنهم كانوا كفرة قبل إيمانهم ، والكفر أعظم جرماً من البدع غير المكفرة ، ووجه ذلك : أن علة الطعن ما كان ، وهو عامل مشترك بين المذموم والصحابة كما هو كذلك بالنسبة لبعض الأنبياء ؛ لما كان منهم من المعصية والكفر قبل البعثة والرسالة ، كما مرّ آنفاً بدليله ، ويكفي هنا : عموم قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخَلَّدُ فِيهِ ۖ مَهَانًا ۖ ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۗ ﴾ [الفرقان : ٦٨ - ٧٠] .

• [وإنما يُفهم فقه هذا الكلام ؛ بمعرفة عموم قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] الدال على العذر بالجهل ، الذي هو أصل أهل السنة والجماعة ، فعموم الآية يُنزّل على أهل الفترة ، كما يُنزّل على مَنْ جهل الدليل من المسلمين ، بإجماع من أهل العلم سلفاً وخلفاً ، وعليه ، لا يقول قائل : لا عبرة بكفر الصحابة قبل البعثة حيث لا تكليف في زمن الفترة ، والذي رجحته هو كلام المحققين من أهل السنة .]

وعلى ضوءه ، فإن كان الذي يقول بدم أهل السنة على ما كان منهم من قبل

هدايتهم للحق، لا يدري الحكم الشرعي فهو جاهل جهلاً مركباً، فإن علم ما مر من الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع فاهتدى ورجع، فهذا ما نريده لكل المسلمين والحمد لله رب العالمين .

غير أننا لن نعامله معاملة للمذموم عنده؛ لأنه إنما ذمه لجهله، وفرق بين الجاهل والعالم حيث قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩] .

وإلا -وعلى طريقته في الذم- لزمه الذم؛ لأنه كان على ضلال في المسألة وقد خالف فيها الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع، فلو أخذناه بما أخذ به هو من ذمه لذمناه؛ ولكننا نعذر بالجهل لأنه أصل من أصول أهل السنة والجماعة، وأصل آخر عندهم: أنهم يحكمون على الرجل بما آل إليه حاله .

وإن كان هذا الذم يدري الحكم الشرعي في المسألة، فحاصل حاله الجحود والهوى والزيغ والضلال، ينتزل عليه قول عطاء السلمي الذي رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨٤٥٥) حيث قال:

«بلغنا أن الشهوة والهوى يغلبان العلم والعقل والبيان» .

وعليه، فقد توجب على كل من ظلم نفسه وقصر في تعليمها، وتكلم في دين الله بغير علم أن يلتزم الصمت سنين عدة حتى يحصل ما يؤهله للتكلم في دين الله؛ لأن الجهل مذمة عظيمة، ونقيصة فاضحة، فضلاً عن أن ينزلوا أنفسهم منزلة العلماء!! سبحانه هذا بهتان عظيم .

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] .

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

فلعظم التكلم في دين الله بغير علم عطفه الله على الإشراف بالله .

وإنه بالتتابع والاستقراء ليُعلم أنه لا يتجرأ على التكلم في دين الله بغير علم إلا السفهاء ممن ينسبون أنفسهم إلى طلب العلم وبينهم وبين العلم خرط الفتاد!!

وماذا عليهم لو أنهم قالوا: علمونا فإننا جهلاء؟! بل سَوَدُوا أنفسهم قبل تَفَقُّهِهِمْ .

ومن هنا يعلم الحصيف الفطن أهمية تحصيل العلوم الشرعية قبل التكلم في دين الله، إذ مناط التكلم في دين الله وسببه هو تحصيل العلوم الشرعية بالقسط الكافي في السنين الطويلة، فإذا استوى عُوْدُهُ في الطلب وتخطى سنَّ الأربعين ولم يقصّر قبلها في أخذ كل العلوم الشرعية في خطوط متوازية زمن الطلب، وشهد له أهل العلم الذين هم أهل العلم حقًا، فله حينئذ أن يتكلم في دين الله، فإذا لم يكن ذلك كذلك فقد توجّب عليه الصمت الذي هو سبيل النجاة .

روى الترمذي في سننه (٢٥٠١) بسند فيه ابن لهيعة، عن عبد الله بن عمرٍ و قال :
قال رسول الله ﷺ :

«من صمت نجا» .

وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٨٨١٩) ورمز لضعفه .

لكن قال المُنَاوي في فيض القدير (٦ / ٢٢٩):

«قال ابن حجر: الأحاديث الواردة في الصمت وفضله ك: «من صمت نجا»، وحديث ابن أبي الدنيا بسند رجاله ثقات: «أيسر العبادة الصمت» لا يعارض حديث ابن عباس الذي جزم بقضيته الشيخ في التنبيه، من النهي عن صمت يوم إلى الليل؛ لاختلاف المقاصد في ذلك، فالصمت المرغّب فيه: ترك الكلام الباطل وكذا المباح إن جرّ إليه، والصمت المنهِيّ عنه: ترك الكلام في الحق لمن يستطيعه، وكذا المباح المستوي الطرفين .

قال الزَّيْنُ العراقي: سند الترمذي ضعيف، وهو عند الطبراني بسند جيد. اهـ

وقال المنذري: رواية الطبراني ثقات. اهـ

وقال ابن حجر: رواه ثقات». اهـ

قلت: وعليه فالحديث ثابت، ومن أشد الباطل: التكلم في دين الله بدون

علم .

● الفائدة السابعة: الأعمال بخواتيمها، ودليل ذلك:

وهذه الفائدة عليها إجماع الأمة قاطبة لا خلاف فيها ألبتة .

فقد روى البخاري في صحيحه (٤٦٧٥) ومسلم (٢٤) عن سعيد بن المسيب عن

أبيه قال :

«لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال النبي ﷺ: «أي عمّ، قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ قال: فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به: فقال: أنا على ملة عبد المطلب» .

وأضف إلى هذا الحديث: الحديث الذي رواه أحمد في المسند (٢١٩٣٣)، والحاكم في المستدرک (١٨٤٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وأبو داود في سننه (٣١١٦)، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال في مرض موته :

سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً كنت أكتمكموه، سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة»، وفي رواية: «دخل الجنة» .

وهذا أمر لا يعارض فيه أو يجحده إلا جهول متبجح، بل هو من أوائل مسائل العلم يعلمها الأمي والعامي، ولولا أنه قد وجد من ذم الناس على ما كان منهم قبل الهداية إلى الحق ما خططت هذا الكتاب، أضف إلى ذلك: ذبوع الجهل وانتشاره، ورواج هذا الكلام الباطل العفن على الكثير من الشباب بل والرجال حتى صار جميعهم يرددونه كالبيغاوات التي لا تدري ما يخرج من رأسها، ومن ثم اضطرت للكتابة .

وعلى ضوء هذه الأحاديث وأمثالها قال الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية في

«مجموع الفتاوى» (١٠/٢٩٩-٣٠٠):

«والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في البداية، والأعمال بخواتيمها .

والله تعالى خلق الإنسان وأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، ثم علمه فنقله من حال النقص إلى حال الكمال، فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال، بل الاعتبار بحال كماله، ويونس رضي الله عنه وغيره من الأنبياء في حال النهاية

حالهم أكمل الأحوال .

ومن هنا غلط مَنْ غلط في تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين، فإنهم اعتبروا كمال الملائكة مع بداية الصالحين ونقصهم فغلطوا، ولو اعتبروا حال الأنبياء والصالحين بعد دخول الجنان ورضا الرحمن، وزوال كل ما فيه نقص وملام، وحصول كل ما فيه رحمة وسلام، حتى استقر بهم القرار: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٣٦﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَمِّ عَقَبَى الدَّارِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤] .

فإذا اعتبرت تلك الحال، ظهر فضلها على حال غيرهم من المخلوقين، وإلا فهل يجوز لعاقل أن يعتبر حال أحدهم قبل الكمال في مقام المدح والتفضيل والبراءة من النقائص والعيوب . . . وما يظنه بعض الناس أنه من ولد على الإسلام فلم يكفر قط أفضل ممن كان كافراً فأسلم ليس بصواب، بل الاعتبار بالعاقبة، وأيهما كان أتقى لله في عاقبته كان أفضل؛ فإنه من المعلوم، أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا بالله ورسوله بعد كفرهم هم أفضل ممن ولد على الإسلام من أولادهم وغير أولادهم». اهـ

قلت: وبمثل ذلك يُقال على من كان مع أهل الأهواء والبدع ثم تاب الله عليه وأحسن التوبة النصوح وأظهر ما كان عليه أهل البدع والأهواء من الزيغ والضلالات وفضحهم بما عرف من أمرهم وملتهم ومذهبهم وصنّف في ذلك الكتب وبرهن على ما يقول بالدليل من الكتاب والسنة والإجماع، فمثل هذا لا يُعادل به آلاف ممن كانوا على الجادة مذ عرفوا عقولهم؛ لأنهم ما عرفوا الباطل الذي عليه أهله حتى يجتنبوه، لذلك تجد الكثير منهم ينحرف بعد صلاح بدايته وهو في انحرافه على يقين أنه على الحق، وحقيقة أمره أنه جاهل جهلاً مركباً، ما أوقعه فيه إلا جهله بمسائل البدع وعدم إمامه، بل عدم معرفته ابتداءً بالفرقان بين الحق والباطل .

ومن هنا قال الفاروق عمر رضي الله عنه: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية» .

وذلك لأن عدم معرفته بها تجعله يقع فيها وهو يظن أنه على خير .

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ

أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٣﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْطَانٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٣١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

فهذه الآيات تبين أن العبرة بالعاقبة وبكمال المآل؛ لذلك قال ابن تيمية - كما مر من المجموع (١٠/٣٠٠):

«ولو اعتبر ذلك؛ لا اعتبر أحدهم وهو نطفة ثم علقه ثم مضغه، ثم حين نفخت فيه الروح، ثم هو وليد، ثم رضيع ثم فطيم، إلى أحوال آخر؛ فَعَلِمَ أن الواحد في هذه الحال لم تقم به صفات الكمال التي يستحق بها كمال المدح والتفضيل، وتفضيله بها على كل صنف وجيل؛ وإنما فضله باعتبار المآل عند حصول الكمال». اهـ

● الفائدة الثامنة: كليم الله موسى ﷺ وذنبه بقتل الرجل وتأكيده لما رجحه

ابن تيمية:

قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْتَنَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٥-١٦].

قال القرطبي في «تفسيره» (١٣/١٩٨-١٩٩):

«قوله: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي من إغوائه، قال الحسن: لم يكن يحل قتل الكافر يومئذ في تلك الحال؛ لأنها كانت حال كف عن القتال، ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ خبر بعد خبر، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾: ندم موسى ﷺ على ذلك الوكز الذي كان فيه ذهاب النفس، فحملة ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه، قال قتادة: عرف والله المخرج فاستغفر، ثم لم يزل ﷺ يعدد ذلك على

نفسه ، مع علمه بأنه قد غفر له ، حتى أنه في القيامة يقول : إني قتلت نفساً لم أومر بقتلها ، وإنما عدده على نفسه ذنباً وقال : ﴿ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَأَغْفِرْ لِي ﴾ من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر .

وأيضاً فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم .

قال النقاش : لم يقتله عن عمد مريدًا للقتل ، وإنما وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمه ، قال : وقد قيل إن هذا كان قبل النبوة .

قال كعب : كان إذ ذاك ابن اثني عشرة سنة ، وكان قتله مع ذلك خطأ ، فإن الوكزة واللكزة في الغالب لا تقتل .

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ أي : من المعرفة والتوحيد ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : عوناً للكافرين .

قال القشيري : ولم يقل بما أنعمت علي من المغفرة ؛ لأن هذا قبل الوحي ، وما كان عالمًا بأن الله غفر له ذلك القتل .

وقال الماوردي : ﴿ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من المغفرة ، وكذلك ذكر المهدي والثعلبي ، قال المهدي : ﴿ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ من المغفرة فلم تعاقبني .

الوجه الثاني : من الهداية . اهـ

قلت : ثم هل هناك أصرح من قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ * ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿ [طه : ١٢١-١٢٢] ؟ فهو حجة قوية جداً في هذا الباب ؛ لذلك جعل ابن تيمية صرف ظاهر هذا تأويلاً كتأويل الجهمية والرافضة والقرامطة .

وكذلك هنا في حال موسى : فإن كان هذا الذنب على القول بأنه قبل النبوة - وهو ظاهر الآيات بعد ذلك ؛ لأن موسى ما أوحى إليه إلا بعدما ذهب إلى مدين ثم سار منها بأهله بعد عشر سنين ، ثم ناداه ربه حينئذ ، كما في آيات سورة القصص من الآية (٢١-٣٥) - فقد ثبت عدم العصمة قبل النبوة ، وإن كانت بعدها ، فهو أخرى بالاستدلال به لموضوع البحث وأقوى .

● الفائدة التاسعة: معنى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]:

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري في «جامع البيان في تأويل القرآن»

(٢٥٢/٣٠):

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾: ووجدك على غير الذي أنت عليه .

وقال السدي في ذلك ما: [٣٧٦٣٩] حدثنا ابن حميد، قال: ثنا مهران، عن

سفيان، عن السدي: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ قال: «كان على أمر قومه أربعين عاماً» .

وقيل: عنى بذلك: ووجدك في قوم ضلال فهداك». اهـ

قلت: أما القول الثاني فبعيد وصرف للظاهر عن ظاهره بدون دليل؛ إذ كيف

يقول الله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ ثم يصرف هذا إلى قومه دونه؟! والأصل حمل اللفظ

على ظاهره بالإجماع .

قال الحافظ أبو الحسن بن القطان في «الإقناع في مسائل الإجماع» (٦٥/١):

«واتفق المحققون على منع إزالة الظواهر من غير دليل». اهـ

وقال الشافعي في «الرسالة» (ص: ٥٥١):

«والقرآن على ظاهره حتى تأتي دلالة منه أو سنة أو إجماع بأنه على باطن دون

ظاهر». اهـ

وقال الشوكاني في «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول» (٢/

٧٥٥):

«واعلم أن الظاهر دليل شرعي يجب اتباعه والعمل به؛ بدليل إجماع الصحابة

على العمل بظواهر النصوص». اهـ

وقال الجويني في «البرهان في أصول الفقه» (١/١٩٤):

«إن الظاهر حيث يطلب العمل به، والمكلف محمول على الجريان على ظاهره

في عمله، فالمعتمد فيه والأصل: التمسك بإجماع علماء السلف والصحابة ومن

بعدهم، فإننا نعلم على قطع أنهم كانوا يتعلقون في تفاصيل الشرائع بظواهر الكتاب

والسنة». اهـ

وقال الزركشي في «البحر المحيط في أصول الفقه» (٤٣٦/٣):

«الظاهر دليل شرعي يجب اتباعه والعمل به، بدليل إجماع الصحابة على العمل بظواهر الألفاظ». اهـ

قلت: ولم يذكر شيخ المفسرين غير هذين القولين؛ أسند الأول وهو قول السُّدي، وضعف الثاني بقوله: «وقيل» وهذا يُستنبط منه ترجيحه للقول الأول الذي يعني:

ما قاله القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٧٠/٢٠) عند الآية:

«وقال الكلبي والسدي: هذا على ظاهره، أي: وجدك كافراً والقوم كفار فهذا». اهـ

قلت: يؤكد ذلك: ما رواه مسلم في صحيحه (١٣٩/١٠٦١) في قصة غنائم حنين، وفيها: أن رسول الله ﷺ قال للأَنْصار: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضللاً فهداكم الله بي؟، وعالة فأنعم الله بي؟».

وإنما هداهم الله برسوله ﷺ من الكفر إلى الإيمان، وظاهر الآية كظاهر الحديث؛ قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٧-٨]، والله أعلم.

وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرٍ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا أَلْيَمِنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

قال القرطبي في «جامعه» (٤١/١٦):

«الثانية: قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا أَلْيَمِنُ﴾ أي: لم تكن تعرف الطريق إلى الإيمان، وظاهر هذا: يدل على أنه ما كان قبل الإيحاء متصفاً بالإيمان. قال القشيري: وهو من مجوزات العقول؛ والذي صار إليه المُعظَّم: أن الله ما بعث نبياً إلا كان مؤمناً قبل البعثة، [قال القرطبي]: وفيه تحكُّم، إلا أن يثبت بتوقف مقطوع به». اهـ

قلت: وليس هناك توقف مقطوع به.

ولقد ردّ القرطبيّ هذا القول جدًّا وأنكره وهو الذي عليه عامة المفسّرين ، ثم قال في نهاية المسألة (٤٤ / ١٦) :

«قلت : الصحيح أنه ﷺ كان مؤمنًا بالله ﷻ من حين نشأ إلى حين بلوغه على ما تقدم» . اهـ

قلت : فإذا المسألة فيها خلاف على ما قرره شيخ الإسلام ؛ لذلك قال القرطبي مرجحًا ما رجحه : «والصحيح . . . » أي : الصحيح في المسألة من الأقوال على ما رجّحه عامة المفسرين .

غير أنه القول الذي يوافق ظاهر الدليل والآية لذلك رجّحه السدي ، ورواه الطبري عنه ولم ينكره عليه ولا علق عليه ، بل رواه من غير نكير ، وكأنه يلمح إلى اختياره واكتفى به مع قول آخر ضعيف قد بيّن ضعفه .

ولقد أراد بعض المفسرين الاستدلال لهذا القول الثاني بقوله تعالى : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف : ٨٢] يعني : أهل القرية ، فهناك محذوف .

قلت : نعم الآية تحتل وجود هذا الحذف ، أما قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا ﴾ الضمير يعود على مفرد لا على جمع ؛ إذ كيف يقال : وجدك بمعنى ووجد قومك؟! ويقال : ووجد قومك ضالًّا لا ضلالًا؟! فهذا بعيد عن اللغة العربية ، أو بعيد عن ظاهر الآية ، ولكن وجد فيها الضلال بمعنى الغفلة والنسيان ، كما قال تعالى : ﴿ أَنْ تَضَلَّ إِحْدَهُمَا فَنُدَكِرَ لِإِحْدَهُمَا الْأُخْرَى ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

وللراغب الأصفهاني كلام قوي وطويل في معنى الضلال في كتابه «المفردات في غريب القرآن» (ص : ٢٩٧-٢٩٩) ورجح بأنه : غير مهتد لما سبق إليه من النبوة فقال :

« . . . ألا ترى أنه قال في النبي ﷺ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ أي : غير مهتد لما سبق إليك من النبوة ، وقال في يعقوب : ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [يوسف : ٩٥] ، وقال أولاده : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : ٨] إشارة إلى شغفه بيوسف وشوقه إليه . . . » اهـ

قلت : غير أن الأمر قبل البعثة مختلف على ما تقرر من كلام شيخ الإسلام ؛

ناقلًا قول جمهور الناس أن العصمة إنما هي بعد البعثة في عدم الإقرار على الباطل والذنب، أما قبلها فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وهذا عام في بني آدم جميعًا، وقد مر الاستدلال على ذلك.

ولكن يقال في هذا السياق: هذا قول قال به أئمة مفسرون لكتاب الله وعلى الأخذ بهذا القول يهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّى عن بيّنة، وهو ما تقرر من قبل في عدم عصمة الأنبياء من الكفر قبل البعثة، ولا يحملن أحدكم التهيّب على مخالفة قول هو ظاهر الأدلة أو إنكاره، فإن القول الشاذ ما خالف الحق والنصوص، والحمد لله رب العالمين.

● الفائدة العاشرة: الإمام حذيفة بن اليمان خبير الفتن والشر والجهالات (رضي الله عنه):

روى مسلم في صحيحه (١٨٤٧/٥١) عن حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) قال:

«كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله: إنا كُنَّا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم» الحديث.

قال أبو العباس القرطبي في «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٤/

٤٢/ح١٤٢٦):

«قول حذيفة: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر) يعني: أنه كان أكثر مسائل الناس عن الخير، وكانت أكثر مسأله عن الشر، وإلا فقد سأل غيره رسول الله ﷺ عن كثير من الشر، وقد كان حذيفة أيضًا يسأل رسول الله ﷺ عن كثير من الخير.

والخير والشر المعنَيان في هذا الحديث إنما هما: استقامة أمر دين هذه الأمة، والفتن الطارئة عليها؛ بدليل باقي الحديث وجواب النبي ﷺ له بذلك.

وقوله: (مخافة أن يدركني) يدل: على حزم حذيفة وأخذه بالحذر، وذلك أنه

كان يتوقع موت النبي ﷺ فيتغير الحال، وتظهر الفتن؛ كما اتفق. اهـ

قلت: ولقد اتفق أهل العلم على أن أعلم الصحابة بالفتن هو حذيفة (رضي الله عنه)،

وإنما وصل إلى هذا العلم؛ بكثرة سؤاله لرسول الله ﷺ عن الشر مخافة أن يدركه،

فمنعه فقهه وفهمه وعلمه ﷺ عن أن تؤثر عليه الفتن فلا يعرف فيها الحق من الباطل؛ فمن لم يعرف الحق من الباطل ضل ضلالاً مبيئاً، وتقرب إلى الله بعين ما يُبعده عن الله تعالى، ونطق بالباطل يظنه الحق، ودافع عن البدعة يراها السنة، وتسربل بسربال الجهل في صورة التزيّن بالعلم.

ويؤكد ذلك: ما رواه ابن أبي شيبة في المصنّف (٣٨٤٤٧) في كتاب الفتن، عن أبي مسعود عن حذيفة بن اليمان قال:

«أما تعرف دينك يا أبا مسعود!» قلت: بلى. قال: «فإنها لا تضرّك فتنة ما عرفت دينك، إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل فلم تدر أيّهما تتبع، فتلك الفتنة».

فانظر -رحمك الله وهداك للحق- إلى سبب وقوع الفتن بالمرء وتأثيرها عليه، فإنما هو: عدم معرفة الحق من الباطل، والسنة من البدعة، والهدى من الضلال، والاستقامة من الزيغ والميل والانحراف، والخير من الشر. فإذا، العصمة بإذن الله في العلم، وهو: معرفة الخير والشر، فيعرف الخير ليمثله، والشر ليجنبه ويحذره ويحذّر منه.

فإذا لم يعرف طالب العلم البدع وقع فيها وفتن بها، وكذلك الباطل فإن الذي لا يعرفه وقع فيه، ومن علم كان معه الفرقان الذي به يُفرّق بين العلم والجهل. وعلى ضوءه تعرف أهمية ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في كلامه الطويل في المجموع والذي مرّ مفصّلاً.

• بيان سبب آخر لتصنيف الكتاب:

وإنه لمن جملة الأسباب التي دفعتني إلى كتابة هذا الكتاب، إضافة إلى ما ذكرته في المقدمة: إظهار الحق وبيانه بدليله في المسألة المطروحة؛ لتكشف للمغرّر بهم حقيقة سفه وجهل وتعالّم وغشّ وهوى وخواء وغباء من قال بهذه المقالة وسعى في نشرها؛ وإنما دفعه إليها هواه وبغضه وحقده لبعض أهل السنة، فغلبته شهوته حتى ذهب مذهب الزائغين المنحرفين، وتملك منه هواه ونفسه الأمانة بالسوء، وهذا يتنزّل على هذه الطائفة كلها، إذ هم كثير يا بُنَيَّ، وهذا على إحساننا الظن بهؤلاء؛

فإن عاملناهم بظاهر أمرهم قلنا : جهلاء سفهاء متعالمون متشبعون بما لم يعطوا ، يدعون من العلم ما يشهد من حولهم أنهم كذبة في ادعائهم ، ولولا تشبع من حولهم بالنفاق والحرص على المصالح الدنيوية لواجهوهم بما فيهم من الخلل العقدي النفسي المرضي ، فنعوذ بالله من دولة النفاق التي حاقت بهم .

فقد روى ابن أبي شيبة في المصنف (٣٨٣٢٦) في كتاب الفتن عن محمد بن علي بن أبي طالب قال :

«رحم الله امرأً كفَّ يده، وأمسك لسانه، وأغنى نفسه، وجلس في بيته، له ما احتسب، وهو يوم القيامة مع من أحبّ، ألا إن الأعمال أسرع إليه من سيوف المؤمنين، ألا إن للحق دولة يأتي بها الله إذا شاء» .

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

«استدراكٌ توجب أمره»

الاستدراك لغةً: هو كلُّ إضافة، أو حذف، أو تصحيح، على كل ما تمَّ ضبطه، أو تسجيله، أو تنظيمه، ورفع توهم حصل من كلام سابق، فيوضع على صحيفة الضبط، وهو بصدد استدراك خطأ بالأمس أريد تصحيحه، فهو طلب الإدراك وللحقوق بما كان، ويكون الاستدراك بـ«لكن»، و«لكن».

• ولقد كان سبب تصنيفي لهذا الكتاب - كما ذكرت في (ص ٤) منه، في مسألة: التكلم في مسائل الشريعة بدون علم، لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، والإجماع القطعي: «العلم معرفة الحق بدليله»، ولا يكون ذلك إلا من أهله، ومن الإجماع: «الاجتهاد لا يُنقض بالاجتهاد»، ومن الإجماع: «لا اجتهاد مع النص»، ومعنى هذه القاعدة يظهر في فهم النص، والفهوم تختلف وضابطها: «ليس كل خلاف معتبراً إلا ما كان له حظ من النظر»، وهذا أيضاً من الإجماع، والفهم المعتبر هو الذي له حظ من الدليل والبرهان الذي هو الصحيح من النظر، فالأمر على ذلك يستقيم، وأنه لا بد من الترجيح في النهاية: ليعلم الحق من الباطل، وهو الفيصل والفرقان لحسم النزاع ولو كان صورياً.

• وكان من جملة مسائل الكتاب مسألة - ليست هي الغاية بل وسيلة من وسائل البيان والترجيح -، وكما مرَّ من قبل عند قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧].

• فليس تصنيفي هذا في بيان هذه الآية ألبتة، بل ذكرت عرضاً لا أصلاً لقد أوردت كلام الكلبِيِّ والسُّدِّيِّ وقولهم بظاهر الآية وأخذها على ظاهرها، وكان منِّي ذلك للإمعان في نفي المعتقد الخاطيء بأنَّ الحكم على الرجال بالعاقبة والمآل لا بما جرى في بداية الحال، فبيّنت أنَّ ذلك كان مع صحابة رسول الله ﷺ ابتداءً - كما مرَّ من قبل - ولم أتوسَّع في الكلام؛ للعلة المذكورة من كتابة هذا الكتاب، ولكن حدث اللبس في تلقي ذلك وظنَّ بي ظنَّ السوء على تعمّد وغش، أو سوء فهم؛ أو تتبع للمتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، حتى وصل الأمر إلى الترصّد، واصطيد

الأخطاء، والرغبة في الوقعة، لا لشيء إلا للهوى، وقد حدث، فرأيت من الحكمة كفت الألسنة، وسد الذريعة، وإزالة الشبهة، وفي نفس ما كتبت في كتابي هذا قول شيخ الإسلام أن المسألة لم يُجمع عليها؛ لأنَّ السُّديَّ والكلبيَّ من أئمة التفسير إذ فسَّرا كل آية في كتاب الله على الغالب، وكل الأئمة أخذت من أقوالهما، فمن المعلوم من الدين بالضرورة عند أهل العلم وطلبته المحققين سلفًا وخلفًا، بل وجُلَّ عوام النَّاس بالسماع لحادثة شق صدر رسول الله ﷺ في صباه، وإخراج حظ الشيطان منه، فكان على الملة والفترة قبل البعثة وبعدها، وسيأتي الكلام في ذلك، وأكرر: قد ذكرت ذلك عرضًا لا أصلًا، والأصل الردُّ على طلبية العلم المذاييع البذر، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك فيما رواه الدارمي في «مقدمة سننه» (٢٥٩) عن علي بن أبي طالب: «تعلموا العلم تُعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، فإنه سيأتي بعد هذا زمانٌ، لا يعرف فيه تسعة عشرائهم المعروف، ولا ينجو منه إلا كلُّ نومةٍ، فأولئك أئمة الهدى، ومصابيح العلوم، ليسوا بالمساييح، ولا المذاييع البذر» قال الدارمي: نُومة: غافل عن الشر، المذاييع البذر: كثير الكلام» اهـ.

وروى البخاري في «الأدب المفرد» (٢٥٠) عن علي رضي الله عنه قال: «لا تكونوا عُجلاً مذاييع بذرًا».

قال ابن الأثير في: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (١٦١ / ٢):

«في حديث علي ووصف الأولياء: «ليسوا بالمذاييع البذر»، وهو جمع مذاييع من أذاع الشيء إذا أفشاه بلا تثبت ولا علم، وقيل أراد الذين يُشيعون الفواحش» اهـ.

وقال ابن منظور في «لسان العرب» (٥٤ / ٣):

«الذَّيْعُ: أن يشيع الأمر، أذعتُ الأمر إذا أفشيتَه وأظهرته، وفي التنزيل: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وكان ضعفه المسلمين يشيعون ذلك معهم من غير علم بالضرر في ذلك، فهو لاء الذين يسبحون في الأرض بالنميمة والشر والإفساد

بين النَّاسِ» اهـ.

قلت: وهذا البدء في الاستدراك فأقول بحول الله وقوته والذين لا تتم الصالحات إلاَّ به سبحانه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ﷺ أما بعد :

• حديث شق صدر النبي ﷺ وهو صبي وإخراج حظ الشيطان من قلبه:

فقد روى مسلم في «صحيحه» (١٦٢ / ٢٦١) عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان فصرعه فشق عن قلبه؛ فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة فقال: «هذا حظ الشيطان منك»، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني ظئره [أي: مرضعته حليلة السعدية] فقالوا: إن محمداً قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر المخيط في صدره».

قال النووي في: «شرح مسلم» (٢ / ٣٦٣ - ٣٦٤):

«وأما قوله: «لأمة» على وزن ضربه ومعناه: جمعه وضم بعضه إلى بعض [كما

في الحديث: «ثم أعاده إلى مكانه»].

وأما قوله: «ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم»، وليس في هذا ما يوهم جواز استعمال إناء الذهب لنا؛ فإن هذا فعل الملائكة واستعمالهم، وليس بلازم أن يكون حكمهم حكمننا؛ ولأنه كان أول الأمر قبل تحريم النبي ﷺ أو اني الذهب والفضة» اهـ.

وروى الحاكم في «المستدرک» (٤١٧٤، ٤٢٣٠) والحديثان قال الحاكم: خالد بن معدان من خيار التابعين صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصحابة، فإذا أسند حديثاً إلى الصحابة فإنه صحيح الإسناد ولم يخرجاه [يعني: البخاري ومسلم لم يخرجا الحديث ولكن هو صحيح على شرطهما في الصحة]، وقال الذهبي في «التلخيص»: صحيح، ورواه محمد بن إسحاق كما في سيرة ابن هشام أبي محمد عبد الملك، فرواه ابن إسحاق من طريق خالد بن معدان الكلاعي، وأورده ابن كثير في: «البداية والنهاية» (٢ / ٢٧٥) وقال: «وهذا إسناد جيد قوي» كذلك

من طريق خالد بن معدان، ورواه الدارمي في: «مقدمة سننه» (١٣) باب (٣) كيف كان أول شأن النبي ﷺ، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/٤٠٣-٤٠٦) رقم (١٣٨٤١) مطوِّلاً، (١٣٨٤٠) وقال: «رواه أبو يعلى والطبراني بنحوه ورجالهما ثقات، وأحمد وإسناده حسن»، رواه الطبراني في «الكبير» (٢٤/٢١٢-٢١٥)، (١٣١/١٧)، وأبو يعلى في «مُسْنَدِهِ» (٧١٦٣) وكلهم من طريق خالد بن معدان قال: حدثنا عبد الرحمن بن عمرو السلميّ عن عتبة بن عبد السلمي أنه حدثهم - وكان عتبة من أصحاب رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال له رجل: كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟ وفي رواية الحاكم أخرى: يا رسول الله ﷺ أخبرنا عن نفسك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم وبُشْرَى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي، أنه خرج منها نوراً أضاءت له بصري، وبصري من أرض الشام».

وفي رواية الحاكم في «المستدرک» (٤١٧٥) كذلك وقال: حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، عن العرياض بن سارية السلميّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني عند الله في أول الكتاب لخاتم النبيين، وأن آدم مجندل في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك: دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام».

هذا جزء من أصل الحديث الذي حققت سنده من طريق خالد بن معدان عن عتبة بن عبد الله السلميّ من رواية الدارمي بلفظه قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بهم^(١) لنا، ولم نأخذ معنا زاداً فقلت: يا أخي اذهب فأتنا بزادٍ من عند أمنا، فانطلق أخي، ومكثت أنا عند البهم، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران فقال أحدهما لصاحبه: هو هو؟، قال الآخر: نعم، فأقبلا يبتدراني فأخذاني فبطحاني للقفا، فشققا بطني، ثم استخرجا قلبي فشققاه، فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: اتني بالسكينة فذرّه في قلبي، ثم قال: حُصّه، فحاصه^(٢)، وختم عليه بخاتم النبوة، ثم قال

(١) البهم: الأعراب وأصحاب البوادي «النهاية» (١/١٦٥).

(٢) المقصود شق الصدر وفتحه.

أحدهما لصاحبه، اجعله في كِفَّةٍ، واجعل ألفاً من أمته في كِفَّةٍ»، فقال رسول الله ﷺ: «فإذا أنا انظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخر عليّ بعضهم، فقال: لو أن أمته وُزنت به لمال بهم، ثم انطلقا وتركاني».

وقال رسول الله ﷺ: «وَفَرَّقْتُ^(١) فَرَقًا شَدِيدًا، ثُمَّ انْطَلَقْتُ إِلَى أُمِّي فَأَخْبَرْتَهَا بِالَّذِي لَقِيتُ، فَأَشْفَقْتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ التَّبَسَّ بِي، فَقَالَتْ: أُعِيدُكَ بِاللَّهِ، فَرَحَلْتُ بَعِيرًا لَهَا فَجَعَلْتَنِي عَلَى الرَّحْلِ، وَرَكِبْتُ خَلْفِي حَتَّى بُلَّغْتَنِي إِلَى أُمِّي فَقَالَتْ: أَدَيْتِ أَمَانَتِي، وَحَدَّثْتَهَا بِالَّذِي لَقِيتُ، فَلَمْ يَرُعْهَا ذَلِكَ وَقَالَتْ: إِنِّي رَأَيْتُ حِينَ خَرَجَ مِنِّي نُورًا أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورَ الشَّامِ».

ثم روى الدارمي في «مقدمة سننه» (١٥) بعد هذا الحديث بروايته، ورواه الحاكم في المستدرک (١٠٠) وصححه ووافقه الذهبي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ».

قلت: وذكر الدارمي هذا الحديث مباشرة بعد حديث الباب -والله أعلم- ترسيخًا لكون هذه الرحمة منذ كان صبيًا وملى قلبه وصدرة بها وختم عليه بخاتم النبوة؛ بل في الحديث الأول وقوله ﷺ: «إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ لِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُجْنَدِلٌ فِي طِينَتِهِ»، فكان في اللوح المحفوظ نبيًا قبل خلق آدم؛ فقد روى مسلم في «صحيحه» (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ».

فكان ﷺ مولودًا على ملة وفطرة وملة التوحيد والإسلام بلا نزاع ولا خلاف، كما في الحديث الذي رواه البخاري في «صحيحه» (١٣٨٥) ومسلم (٢٦٥٨) قال: رسول الله ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانَهُ أَوْ يُنَصِّرَانَهُ أَوْ يُمَجْسِنَانَهُ» فَوُلِدَ ﷺ عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ وَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَقَبْلَ أَنْ يَجْتَمَعَ فِيهِ أَبَوَاهُ، وَهَذَا يَقِينٌ قِطْعِيٌّ مَجْزُومٌ بِالصَّحَّةِ، وَأَنَا أَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْذُ كُنْتُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي بِمَسْجِدِنَا عَلَى بَعْدِ أَمْتَارٍ مِنْ بَيْتِنَا، حَيْثُ كَانَ أَبِي يَحْرُصُ عَلَى الصَّلَاةِ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ وَكَانَ

(١) فَرَّقْتُ مِنْهُ: خِفْتُ مِنْهُ.

يصحبنا لصلاة المغرب والعشاء معه، لأنه كان ينتهي عمله بعد العصر، فكانت ملتزمًا بهذا الكتاب من السنة الأولى الابتدائية، فكانت أكون في المدرسة بالصباح، وبعد الظهر في الكتاب أتعلم فيه العلوم الدينية والدينية، وهذا الأمر معلوم عند المسلمين في كل زمان ومكان.

وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

قال القرطبي أبو عبد الله في كتابه: «الجامع لأحكام القرآن» (١٦ / ٤٢، ٤٣):

«الثانية قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾؛ أي: لم تكن تعرف الطريق إلى الإيمان، وظاهر هذا يدل على أنه ما كان قبل الإيحاء قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ متصفاً بالإيمان، قال القشيري: وهو من مجوزات العقول، والذي صار إليه المعظم: أن الله ما بعث نبياً إلا كان مؤمناً به قبل البعثة [يعني: كل الأنبياء].

قال القرطبي: وفيه تحكّم، إلا أن يثبت ذلك بتوقيف ودليل مقطوع به.

قال القاضي عياض: وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة، فللناس فيه خلاف، والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكيك في شيء من ذلك؛ وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق المعارف ونفحات الطاف السعادة، ومن طالع سيرتهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك، كما عُرِف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْخُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] قال المفسرون: أُعْطِيَ يحيى العلم بكتاب الله في حال الصبا، قال معمر: كان ابن سنتين أو ثلاث، فقال له الصبيان لم لا تلعب! فقال أَللَّعِبِ خُلِقْتُ؟!، وقيل في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحْصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] صدق يحيى وعيسى وهو ابن ثلاث سنين، فشهد له أنه كلمة الله وروحه [يعني عيسى]، وقيل: صدقه وهو في بطن أمه، فكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجِدُ ما في بطني يسجد لما في بطنك تحية له، وقد نصَّ الله

على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياها بقوله: ﴿أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْنَكِ سَرِيًّا ۗ﴾ [مريم: ٢٤، ٢٥] على قول من قال: إِنَّ وَهْرِي إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ سُقِطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۗ [مريم: ٢٤، ٢٥] على قول من قال: إِنَّ الْمَنَادِي عَيْسَى، وَنَصَّ عَلَى كَلَامِهِ فِي مَهْدِهِ فَقَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۗ﴾ [مريم: ٣٠]، وقال: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنٌ وَكُلًّا ءَايِنَّا حُكْمًا وَعِلْمًا ۗ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقد ذكر من حكم سليمان وهو صبي، وحكى الطبري أن عمره كان حين أوتي الملك اثني عشر عامًا، وكذلك قصة موسى ﷺ مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل.

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَايَنَّا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]، أي: هديناه صغيراً قاله مجاهد وغيره، وقيل: إن إلقاء إبراهيم في النار ومحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة، وقيل أوحى إلى يوسف وهو صبي عندما هم إخوته بإلقائه في الجُبِّ بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، إلى غير ذلك من أخبارهم، ثمَّ يتمكَّن الأمر وتترادف نفحات الله تعالى عليهم، وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا إلى الغاية ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوَّة في تحصيل الخصال الشريفة، قال تعالى على موسى ﷺ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاسْتَوَى ءَآيِنَتَهُ حُكْمًا﴾ [القصص: ١٤].

• من أقوى الأدلة على إيمان الأنبياء قبل الرسالة:

قال القاضي عياض: ولم ينقل أحد من أهل الأخبار، أن أحداً نبئ وأصْطُفِي مِمَّنْ عُرِفَ بِكُفْرٍ وَإِشْرَاقٍ قَبْلَ ذَلِكَ، ومستند هذا النقل: وقد استدلل بعضهم: بأن القلوب تنفر عمَّن كانت هذه سبيله، وأنا القول: إنَّ قريشاً قد رمت نبينا ﷺ بكل ما افترته، وعير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته، ممَّا نصَّ الله عليه، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تعبيراً لواحدٍ منهم برفضه آلهتهم وتقريعه بدمه بترك ما كان قد جامعهم عليه، ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلونه في معبوده مُحتجِّين، وكان توبيخهم له بنهيهما عمَّا كان يعبد قبل أن أقطع وأقطع في الحجَّة، من توبيخهم بنهيهما عن تركه آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل، ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه، إذ لو كان لنقل وما سكتوا عنه، كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة وقالوا: ﴿مَا وَلَّهُمْ عَن

فَبَلِّغْهُمْ أَلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴿؟﴾ [البقرة: ١٤٢] كما حكاها الله عنهم اهـ .

قلت: وما قاله القاضي عياض من أجود ما يكون؛ لأنه قطع باليقين للشك ومحوه وإزالته .

• وقال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] .

قال القرطبي في: «جامعه» (٢/٦٨-٧٠):

«أي: غافلاً عما يُرادُ بك من أمر النبوة فهَدَاكَ، أي: أرشدك، والضلال هنا بمعنى الغفلة؛ كقوله تعالى وجل ثناؤه: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]؛ أي: لا يغفل، وقال في حق نبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، وقال قوم: ﴿ضَالًّا﴾ لم تكن تدري القرآن والشرائع فهداك الله إلى القرآن وشرائع الإسلام، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] .

وقال قوم: أي وجدك في قوم ضلال فهداهم الله بك، وهذا قول الكلبي والفرّاء، وعن السدي نحوه، أي: ووجد قومك في ضلال فهداك إلى إرشادهم، وقيل: ووجدك ضالاً عن الهجرة فهداك بها، وقيل: ووجدك متحيراً عن بيان ما نزل عليك فهداك إليه، ويكون الضلال بمعنى التحير، لأن الضال متحير، وقيل: ووجدك ضائعاً في قومك فهداك إليه، ويكون الضلال بمعنى الضياع، وقيل: ووجدك محبباً للهداية فهداك إليها، ويكون الضلال بمعنى المحبة، ومنه قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]؛ أي: في محبتك ليوسف .

• وقال البعض: إذا وجدت العرب شجرة منفردة في فلاة من الأرض، لا شجر معها سمّوها ضالّة، فيهتدي بها إلى الطريق، فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾؛ أي: لا أحد على دينك، وأنت وحيد ليس معك أحد، فهديت بك الخلق إليك .

[قال القرطبي:] قلت: هذه الأقوال كلها حسان، ثم منها ما هو معنوي، ومنها ما هو حسي، والقول الأخير أعجب إليّ؛ لأنه يجمع الأقوال المعنوية .

وقال قوم: إنه كان على جملة ما كان القوم عليه، لا يظهر لهم خلافاً على ظاهر الحال، فأما الشرك فلا يُظنُّ به، بل كان على مراسم القول في الظاهر أربعين سنة .

وقال الكلبي والسدي: هذا على ظاهره: أي: وجدك كافرًا والقوم كفار فهداك، وقد مضى هذا القول والردّ عليه في سورة الشورى.

وقيل: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ في قراءة للحسن البصري، وضالٌّ بالرفع أي: وجدك الضالُّ فاهتدي بك، وهذه قراءة على التفسير، وقيل: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ لا يهتدي إليه قومك، ولا يعرفون قدرك، فهدي المسلمين إليك حتى آمنوا بك» اهـ. قلت: فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ فكل هذه المعاني، معتبرة ومتوافقة، إلا قول الكلبي والسدي، جعل اللفظ على ظاهره، وهذا الذي رواه ابن جرير الطبري في تفسيره «جامع البيان في تأويل آي القرآن» (٢٥٣/٣٠) فقال الطبري: «وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ووجدك على غير الذي أنت عليه اليوم، وقال السدي في ذلك ما: (٣٧٦٣٩) حدثنا ابن حميد قال: ثنا مهران، عن سفيان، عن السدي: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ قال: كان على أمر قومه أربعين عامًا»، وقيل: ووجدك في قوم ضلال فهداك.

(٣٧٦٤١) حدثنا عن قتادة: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَعَمَّى ﴿٨﴾ [الضحى: ٦، ٨] قال: كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله ﷻ» اهـ.

• وقال السعدي في: «تفسيره» (ص: ٨٨٧):

«أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق» اهـ.

وقال المفسر الفقيه الأصولي محمد الأمين الشنقيطي في كتابه: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (٣/٣٨):

«قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨] الظاهر أن مراد يعقوب بهذا الضلال الذي وصفوا به أباهم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في هذه الآية الكريمة، إنما هو الذهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي، ويدل على هذا: ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب، فمنه بهذا المعنى قوله تعالى عنهم مخاطبين أباهم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي

ضَلَّكَ الْكَدِيمِ ﴿[يوسف: ٩٥]، وقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]؛ أي: لست عالمًا بهذه العلوم التي لا تُعرف إلا بالوحي، فهداك إليها وعلمكها بما أوحى إليك من هذا القرآن العظيم.

وليس مراد أولاد يعقوب الضلال في الدين، إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفارًا، وإنما مرادهم أن أباهم في زعمهم في ذهاب عن إدراك الحقيقة، وإنزال الأمر منزلته اللائقة به، حيث أثر اثنين على عشرة، مع أن العشرة أكثر نفعًا له، وأقدر على القيام بشؤونه وتدبير أموره.

واعلم أن الضلال أُطلق في القرآن إطلاقين آخرين:

أحدهما: الضلال في الدين، أي: الذهاب عن طريق الحق التي جاءت بها الرسل وهذا أشهر معانيه في القرآن، ومنه بهذا المعنى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصفات: ٧١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢] إلى غير ذلك من الآيات.

ثانيهما: إطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة، من قول العرب: ضل السمن في الطعام إذا غاب فيه وهلك فيه، ولذلك تسمي العرب الدفن إضلالًا؛ لأنه تغيب في الأرض يؤول إلى استهلاك عظام الميت فيها، لأنها تصير رميمًا وتمتزج في الأرض، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠]، ومن إطلاق الضلال على الغيبة قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَاءٌ كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤]؛ أي: غاب واضمحل» اهـ.

قلت: الكلمة في الكتاب والسنة يختلف معناها والمراد منها ومقصودها باختلاف السياق، فهذا من المعلوم بالدين من الضرورة عند أهل الشأن، فالقاعدة الفقهية المهمة: «العبرة في العقود بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني»، وأختها كذلك: «إنما الألفاظ قوالب للمعاني» فلفظة الضلال يتغير معناه -ولا بد- مع مراعاة إجماع الأمة على جمل اللفظ على ظاهره وعمومه ما لم يدل الدليل والبرهان والسياق على صرفه عن ظاهره وعمومه؛ لذلك أخطأ الكلبي والسدي في حمل قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ على ظاهره، مع أنهما إمامان في التفسير

ونقلت كل الأمة تأويلاتهم لأي القرآن، حتى إن الطبري شيخ المفسرين في تفسيره الكبير عند هذه الآية: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ لم يعلق على قول السدي ومرره، حتى أخذ البعض بما قالاه، وهذا لا ينبغي، وإن قيل ذلك، ولكن إجماع الأمة على: «أنه: كل أحد يؤخذ من قوله ويؤرد إلا رسول الله ﷺ» لاسيما هذا التأصيل الذي ذكرته في بداية المقال بالدليل والبرهان اليقيني أن رسول الله ﷺ كان قبل البعثة والرسالة على التوحيد، كيف لا؟ وزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل وهما ليسا بأنباء كانا على التوحيد، فما ظنك برسول الله ﷺ!!!

• لذلك قال القرطبي بعد الكلام الذي أورده في تفسير سورة الشورى لما ذكر كلام العلماء، ونقل قول الكلبي والسدي ثم قال في: «الجامع لأحكام القرآن» (٤٤/١٦) في قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢]: «وحكى الماوردي عن علي بن عيسى

قال: ما كنت تدري ما الكتاب لولا الرسالة ولا الإيمان لولا البلوغ، وقيل: ما كنت تدري ما الكتاب لولا أنعمنا عليك، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك، وهو محتمل.

وفي الإيمان وجهان: أحدهما: أنه الإيمان بالله، وهذا يعرفه بعد بلوغه وقبل ثبوته، والثاني: أنه دين الإسلام، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوة.

قلت [يعني: القرطبي]: الصحيح أنه ﷺ كان مؤمناً بالله ﷻ من حين نشأ إلى حين بلوغه على ما تقدم.

وقيل: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾؛ أي: كنت من قوم أميين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان، حتى تكون أخذت به عمّن كان يعلم ذلك منهم، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّونَ بِمِيمِنِكُمْ إِذَا لَأْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] اهـ.

• أسلم قرين النبي ﷺ فلم يأمره إلا بخير:

قلت: وروى مسلم في «صحيحه» (٢٨١٤) عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من

الملائكة» قال: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، إلا أن الله أعاني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير».

قلت: فبين شق الصدر، وقول جبريل ﷺ لرسول الله ﷺ: «هذا حظ الشيطان منك»، وقوله ﷺ: «إلا أن الله أعاني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»؛ برهان يقيني، واستنباط شرعي، واستخراج أصولي، وفهم علمي، وحديثان يكتفي بهما في فض النزاع ووجه ذلك: في الحديث الأول أمر الله تعالى لجبريل بنزع حظ الشيطان من قلب رسول الله ﷺ، فأزيلت العلة وأزاحت باستخراج العلقة وباستخراجها حدثت الاستحالة، والقاعدة الكلية: «الحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا، فإذا وجدت العلة وجد الحكم، وإذا انتفت العلة انتفى الحكم»، كالخمر إذا خلل صار حلالاً بنزع الإسكار منه، ومحو حظ الشيطان أقوى وأعظم لأنه بالمحو فرغ القلب من كل سوء وشر وفساد ووسوسة فخصص وميز عن كل بني آدم من الأنبياء والمرسلين، وبني آدم أجمعين حتى آدم ﷺ، وفي الحديث الثاني إسلام قرينه وشيطانه فلا يأمر إلا بخير؛ وبذلك توجب صرف ظاهر الآية عن ظاهرها وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ بحتمية هذين الحديثين الصارفين، مع أن الإجماع القديم على حمل اللفظ على ظاهره كما قال السندي والكلبي، والكل يؤخذ من قوله ويرد، و«الاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد»، وذلك عند وجود التأويل القائم على أضل مجمع عليه قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّئُهَا فَاسْتَغْنُوا الْخَيْرَاتِ آيِنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وما دامت وجدت النية للوصول إلى الحق فالمصيب له أجران والمخطئ له أجر.

روى البخاري في «صحيحه» (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) قال رسول الله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»، والعلم رحب بين أهله، وما سمع أحد من أهل العلم سلفاً ولا خلفاً قولاً بتكفير السندي أو الكلبي على مر العصور والأزمان، ويقيناً المسألة خلافية، وهذا منهج أهل السنة والجماعة، وانظر إلى رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» فعلى ظاهر هذا الحديث العمدة فقد -والله أعلم- أجر الشيخان السندي والكلبي، وإنما يذم ويقبح من خالف منهج الاستنباط السلفي الأثري

الصحابي ، القائم على الكتاب والسنة والإجماع والقياس الشرعي الجلي المدعوم بهذه الأصول الثلاثة التي تُوزن بها الناس في الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة ممّا له تعلق بالدين .

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليم الحكيم الخبير: ثمّ نرجع إلى ما تبقى من هذا الكتاب ، بعد استدراكي هذا ، الذي اخترت له هذا المكان ، ليتضح المراد ، ويُزال الفساد ، ويُردّ الجهل والزيغ وسوء النفس والعناد ، سلمنا الله من كل سوء وشر وحقّد وغلّ إنّه وليّ ذلك والقادر عليه .

* * *

الفصل الثاني طلبة التجهيل بين الجهل المركب والبسيط

- في معنى الجهل المركب والبسيط:
قال الجرجاني في «التعريفات» (ص: ٧١):
«الجهل هو: اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه .
والجهل البسيط هو: عدم العلم عمّا من شأنه أن يكون عالمًا .
والجهل المركب هو: عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع» . اهـ
وقال ابن فارس في «مقاييس اللغة» (١/ ٤٨٩-٤٩٠):
«الجيم والهاء واللام أصلان: أحدهما خلاف العلم، والآخر الخِفة وخلاف
الطمأنينة .
فالأول: الجهل نقيض العلم، ويقال للمفازة التي لا علم بها مَجْهَلٌ .
والثاني: قولهم للخشبة التي يُحرّك بها الجمر: مِجْهَلٌ، ويقال: استَجْهَلْتُ
الريح العُصن، إذا حرّكته فاضطرب، ومنه قول النابغة:
دعاك الهوى واستجهلتك المنازلُ وكيف تصابي المرء والشيبُ شاملُ
وهو من الباب؛ لأن معناه: استخفّتك واستفزّتك .
والمَجْهَلَةُ: الأمر الذي يحملك على الجهل» . اهـ
وقال الراغب الأصفهاني في «المفردات في غريب القرآن» (ص: ١٠٢):
«الجهل على ثلاثة أضرب:
الأول: وهو خلو النفس من العلم، هذا هو الأصل .
والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه .
الثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقّه أن يفعل سواءً اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو

فاسدًا، كمن يترك الصلاة متعمدًا، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ نَحْنُ الَّذِينَ هُمْزُوا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] فجعل فعل الهُزُو جهلاً، وقال ﴿كَلَّا: فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ﴾ [الحجرات: ٦].

والجاهل تارة يُذكر على سبيل الذمّ، وهو الأكثر، وتارة لا على سبيل الذمّ؛ نحو: ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] أي: من لا يعرف حالهم، وليس يعني المتخصّص بالجهل المذموم». اهـ

وقال ابن منظور في «لسان العرب» (مادة: جهل) (١/٧١٣):

«الجهل نقيض العلم، عن سيويه.

وقال الجوهري: جاهل: أرى من نفسه الجهل وليس به، واستجهله: عدّه جاهلاً واستخفه أيضاً.

والتجهيل: أن تنسبه إلى الجهل، وجَهَلَ فلانٌ حقَّ فلان، وجهل فلان عليّ وجهل بهذا الأمر.

والجهالة: أن تفعل فعلاً بغير علم.

قال ابن شميل: إن فلاناً لجاهل من فلان أي جاهل به.

قال ابن جنّي: قالوا جهلاء كما قالوا علماء، حملاً له على ضده، رجل جهول: كجاهل.

والمجهلة: ما يحملك على الجهل، ومنه الحديث: «الولد مبخله مجبنة مجهلة»^(١)، وقال مُضَرَّس بن ربيعي الفقعسي:

إنّا لنصفح عن مجاهل قومنا ونقيم سالفة العدو الأُصَيْدِ

(١) رواه أحمد في المسند (١٧٤٩٢)، والحاكم في المستدرک (٤٧٧١) وصححه ووافقه الذهبي، وابن أبي شيبة في المصنف (١٢٢٢٩)، والبيهقي في الكبرى (١٠/٢٠٢)، قال الهيثمي في المجمع (١٠/٥٤): «رواه أحمد والطبراني ورجلها ثقات»، وأخرجه السيوطي في الجامع الصغير (٢١٥١) وصححه، وقال المناوي في فيض القدير (٢/٥٢١): «وقال الحافظ العراقي: إسناده صحيح، . . وقال الذهبي: إسناده قوي». اهـ، وانظر: المقاصد الحسنة (ح١٢٦٧).

وأرض مجهل: لا يُهتدى فيها، وأرض مجهولة: لا أعلام فيها ولا جبال». اهـ
مُلَخَّصًا.

وقال شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم»
(١/ ٢٥٤-٢٥٩):

«ولفظ الجاهلية قد يكون اسمًا للحال، وهو الغالب في الكتاب والسنة، وقد
يكون اسمًا لذي الحال.

فمن الأول: قول النبي ﷺ لأبي ذر: «إنك امرؤ فيك جاهلية»^(١)، وقوله:
«يا رسول الله كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٌّ» أي: في حالة جاهلية أو طريقة جاهلية، أو عادة
جاهلية ونحو ذلك.

فإنَّ الجاهلية وإن كانت في الأصل صفة، لكنه غلب عليه الاستعمال حتى صار
اسمًا، ومعناه قريب من معنى المصدر.

وأما الثاني فنقول: طائفة جاهلية، وشاعر جاهلي، وذلك نسبة إلى الجهل،
الذي هو عدم العلم، أو عدم اتباع العلم، فإن من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلاً
بسيطاً، فإن اعتقد خلاف الحق: فهو جاهل جهلاً مركباً، فإن قال خلاف الحق
عالمًا بالحق أو غير عالم: فهو جاهل أيضًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال النبي ﷺ: «إذا كان أحدكم صائمًا،
فلا يرفث ولا يجهل»^(٢).

ومن هذا قول بعض شعراء العرب:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وهذا كثير، وكذلك من عمل بخلاف الحق فهو جاهل، وإن علم أنه مخالف للحق،
كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]،
قال أصحاب محمد ﷺ:

(١) رواه مسلم (١٦٦١)، والبخاري (٣٠).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١)، وأبو داود في سننه (٢٣٦٣).

«كل من عمل سوءاً فهو جاهل»^(١).

وسبب ذلك: أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل، فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه، أو ضعفه في القلب بمقاومة ما يعارضه، وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم.

ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مستحق^(٢) الإيمان حقيقة لا مجازاً، وإن لم يكن كل من ترك شيئاً من الأعمال كافراً ولا خارجاً عن أصل مسمى الإيمان، وكذلك اسم: العقل، ونحو ذلك من الأسماء.

ولهذا يسمي الله أصحاب هذه الأحوال: موتى، وعمياً، وصمماً، وبكمماً، وضالين، وجاهلين، ويصفهم بأنهم: لا يعقلون، ولا يسمعون. ويصف المؤمنين: بأولي الألباب، وأولي النهى، وأنهم مهتدون، وأن لهم نوراً، وأنهم يسمعون ويعقلون.

فإذا تبين ذلك، فالناس قبل مبعث الرسول ﷺ كانوا في حال جاهلية؛ منسوبة إلى الجهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل، وإنما يفعله جاهل.

وكذلك كل ما يخالف ما جاءت به المرسلون: من يهودية ونصرانية، فهي جاهلية، وتلك كانت الجاهلية العامة، فأما بعد مبعث الرسول ﷺ، قد تكون في مضرٍ دون مضرٍ، كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أن يُسلم، فإنه في جاهلية، وإن كان في دار الإسلام.

فأما في زمان مطلق: فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ؛ فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة^(٣).

(١) رواه ابن جرير في تفسيره عن أبي العالية (٨٧٢٩)، وفتادة (٨٧٣٠).

(٢) في نسخة: «مسمى».

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٧٤٦٠)، ومسلم (١٥٦، ١٩٢٢) ولفظه: «لا تزال طائفة من أممي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك».

والجاهلية المقيدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين ، وفي كثير من الأشخاص المسلمين ، كما قال ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية»^(١)، وقال لأبي ذر: «إنك امرؤ فيك جاهلية»^(٢) ونحو ذلك. اهـ

• غلمانٌ صبيانٌ بلحى، فيهم جاهلية:

فإذا تقرر عندك ما مضى بيانه مفصلاً في هذا الفصل فاعلم:

أنه قد نبتت نابتة شيطانية ينتسبون إلى طلب العلم ، والعلم والعلماء وطلبة العلم حقاً منهم برآء؛ إذ حالهم بين الجهل والجهالة والمجهلة والتجهيل ، يَحْيُونَ بين الجهل المركب والبسيط ، أما الجهل البسيط - كما مرّ ذكره - فهو خلو النفس من العلم ، وأما الجهل المركب: فهو اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه وجهله بأنه ليس كذلك ، أو هو عبارة عن اعتقاد جازم لا شك فيه غير مطابق للواقع ، بمعنى: أن الشاب منهم يعتقد الباطل وهو يجزم بكونه حقاً فهم كما وصفهم شيخ الإسلام آنفاً في «اقتضاء الصراط المستقيم» أنهم: موتى ، عمي ، صم ، بكم ، ضالون ، جاهلون ، لا يعقلون ، ولا يسمعون ، ولا يهتدون ، وهم على ما فيهم من الجهل والضلال مُصْرُونَ مستقرّون .

ثم أضف إلى هذه الأوصاف: أنهم أصحاب هوى زائغون منحرفون عن الحق وعن الجادة المستقيمة ، حاقدون ، حاسدون ، مبغضون لأهل السنة ، وإن زعموا في ظاهر أمرهم لبادي الرأي أنهم يحبّون أهل السنة ويحبّلونهم ، بل - والله - يصدون عن السنة وعن سبيل الله ، تتحكم فيهم الشهوات والأهواء حتى أنهم قد يتحدثون مع أهل الأهواء في بعض الأحيان ؛ لو اتفقوا معهم على ما يريدون ، خالف ما يريدون الكتاب والسنة والحق أم لم يخالف ؛ لا يباليون ؛ فهم كما وصفهم عطاء السليمي فيما رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨٤٥٥) قال:

«بلغنا أن الشهوة والهوى يغلبان العلم والعقل والبيان» .

(١) رواه مسلم (٩٣٤) .

(٢) حديث متفق عليه وقد مرّ قريباً .

وهذا الأثر إما أنه له حكم المرفوع إلى رسول الله ﷺ بسند صحيح منقطع مرسل، أو هو من قول الصحابة رضي الله عنهم بسند متصل صحيح .

ولمّا كان حالهم بين الجهل المركب والبسيط فيجدهم العاقل يتكلمون في دين الله بلا علم ولا فهم ولا وعي، ومع جهلهم المطبق تجدهم يتزيتون بقشور العلم، متعالين مدّعين للعلم - وبينهم وبين العلم المفاوز والبحار - منافقين كذابين، ثم من خلال هذا الزعم والادّعاء بالعلم تجدهم يُصنّفون الناس فيجعلون فلاناً - الذي هو من جلدتهم، ويتكلم بلسانهم، وينافق نفاقهم - يجعلونه من أهل العلم الثقات الأثبات، ومن خالف هواهم ورفض نفاقهم وكذبهم وسفههم، ولم يرض بجهالتهم: سقوه وسبّوه وأسقطوه، في منظومة من البهت اليهودي الذي مارسه اليهود مع الصحابي الجليل العالم عبد الله بن سلام رضي الله عنه، حيث وصفوه فقالوا: عالمنا وابن عالمنا . . . ثم لما أخبرهم بإسلامه قالوا: سفيهنا وابن سفيهنا، وجاهلنا وابن جاهلنا، فتجدهم مع ما هم فيه من الهلاك يباشرون التجهيل، فيُجهّلون من شاءوا، ويخفضون بكلامهم من شاءوا، ويرفعون به من شاءوا بلا إثارة من علم .

ثم مع ذلك تجدهم فرقاً وأحزاباً وجماعات متشرذمة متناحرة متفرقة وكلهم يزعم أنه من أهل السنة والجماعة، يُسفّه بعضهم بعضاً، ويشتم بعضهم بعضاً، ويُجهّل بعضهم بعضاً؛ وكل واحد منهم هو عند نفسه الجهبذ الذي حُقّ له أن يتكلم في دين الله، وكل من دونه جهلة .

ثم مع ذلك تجدهم مقلدين تقليداً أعمى متعصّبين لمن ينتمون إليه من المشايخ، كادوا أن يجعلوا لمشايخهم العصمة، ومن خالف شيخهم بحق قطّعه بالسنتهم الحداد، والصبيّ منهم إن أحسنا إليه قلنا: هو الرويضة بعينه يتكلم في أمر العامة، والغريب أنهم ينتسبون إلى شيخهم وهم لا يحضرون لشيخهم مجالسه العلمية، وهذا عبث رهيب!!

ومع كثرة تنقلي بين القرى والمحافظات، فلم أجد مصرّاً أو قرية قد خلت من هذا الصنف من الغلمان ذوي اللّحى المفسدين في الأرض باسم السنة والسلفية، ولو سُئل - والله - فيما لا يسع المسلم جهله لا نقطع!!

* فمن طوام هؤلاء الصبيان : تسفيه كل أهل السنة في بلادنا عدا شيخهم وهذا هو حقيقة أمرهم مع كثرتهم واختلاف مشايخهم ، وإن أظهروا عكس ذلك على حسب قُوَّة المُسَفِّهِ عندهم وضعفه في الردِّ ، وعلى حسب شهرته وعدمها ، وعلى حسب بطانته وحاشيته ؛ وغالبهم يتكلم بالرمز والتلميح وعدم التصريح بالاسم ؛ لأن أمرهم قائم على الهوى والشهوة لا على الدليل والحق ، إذ لو صرَّحوا لُبَّهتوا وانقلبوا خاسرين وبدَّعهم العقلاء ؛ إذ كيف يحارب هؤلاء الجُرذان الهمج الرعاع رؤوس أهل السنة ، وما دليلهم الشرعي على ما يفعلون ، ومن فرط جُبْنهم وعلمهم أنهم على باطل ، إذا واجهت أحداً منهم أنكر وكذَّب كذِّباً بيِّناً ، وظل يُثني على مَنْ يُعلم مِنْ حاله أنه يطعن فيه ويسعى في إسقاطه بلا مرية ، ولكنها التقية الراضية التي دبَّت في قلوب صبيان أهل السنة وأشْرَبَتْهَا نفوسهم ، فصارت تنضح عليهم في كل وقت وحين ، حتى في غير وقت احتياجهم على ما تقرر عندهم من الضلال المبين .

* وكانت من طوامهم التي انتشرت عند عامتهم : التَّيْل من رجال أهل السنة والتشهير بهم على ما كان منهم قبل أن يهديهم الله إلى الحق فقالوا بما كان لازمه الكفر المتحصل من الطعن في الأنبياء والمرسلين ، ومن ثم الطعن في الكتاب والسنة وإجماع المسلمين ، ثم الطعن في صحابة رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم .

ولأن هؤلاء الصبيان ذوي اللحي لا عقول لهم ولا فقه ولا فهم ، صاروا بقولهم هذا يطعنون في مشايخهم الذين يتعصَّبون هم لهم .

ووجه ذلك الطعن : أني لا أعلم رجلاً من مشايخ أهل السنة في بلدنا -سوى القليل- ، إلا وكان له أقوال وآراء توافق أهل البدع والأهواء والضلالات ، أو كان معهم ثم تاب الله عليهم فاهتدى إلى الحق حتى أصبح جميعهم سيوفاً مُصَلِّتة على أهل البدع والأهواء والضلالات يفضحونهم ويظهرون عوارهم ويصنِّفون فيهم الكتب والمقالات مستدلين على ما يقولون بالكتاب والسنة والإجماع وآثار السلف الصالحين ، قد أعلنوا براءتهم مما كانوا عليه عشرات المرَّات ، والمرة منهم كافية ، ولكن زيادة في البيان والتوضيح وإزالة اللبس والتدليس عن طلبة العلم الصغار ، وإذا عرف الصبي منهم أن قوله هذا طعن في شيخه ما قاله .

وعلى ضوء ما مرَّ بيانه في هذا المصنَّف ؛ فإن حالهم بعد الهداية والتوبة أفضل

ممن لم يقع في بدعهم أو قال ببعض قولهم؛ لأنه صار أخبر بهم من غيره الذي لا يعلم خبايا بدعهم، وما فضحهم الذي كان منهم، ثم تاب، إلا من خلال معرفته لتفاصيل ضلالهم ومذهبهم.

وهذا تجده ملحوظًا جدًا على مرّ العصور والأزمان، فمثلاً: ما عرفنا الكثير من خبايا الإخوان المسلمين الإجرامية إلا من اعترافات من كان منهم.

وعليه، فهؤلاء الجهلاء من السفهاء الضلال المتبجحين المتكبرين المتعالمين الصبيان الفاسدين، إنما نطقوا بهذه الطامة: من تسفيه رؤوس أهل العلم؛ لما كان منهم قبل الهداية للحق، إنما قالوه من فرط جهلهم وسفههم وعدم علمهم لما يخرج من رؤوسهم؛ ولانعدام فقههم وفهمهم وتحكم الهوى والشهوة وطبع البهت في قلوبهم ونفوسهم، وهذا عهد العقلاء من أهل السنة بهم.

• رسالتي إلى طلبة العلم المباركين الغرباء من أهل السنة:

وفي هذا السياق، فإني أدعو طلبة أهل العلم من أهل السنة في شتى أنحاء مصر - حفظها الله -، إذ في خضم هذه المعجزة يوجد من يصدق عليه أنه طالب علم حقًا - وإن كانوا قلة قليلة، ولكن يبارك الله في القليل بمنه وجوده وكرمه سبحانه العليم الحكيم - فإني أدعو هؤلاء الطلبة المباركين من أهل السنة: أن يكونوا على قلب رجل واحد، على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم، وأن يكونوا جادين في الطلب، فيجتهدوا في حفظ كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ لا سيما آيات الأحكام في القرآن، وأدلة الأحكام من السنة، وأن يجتهدوا في معرفة الصحيح والضعيف من هذه الأدلة إذ عليها تقوم الفتوى ويكون التكلم في دين الله، في الأمور العلمية والعملية وفي كل مسائل الشريعة مطلقًا بلا حصر، وأن ينتصبوا في تحصيل العلوم الشرعية من المصطلح واللغة والسيرة والتفسير وباقي العلوم الشرعية، وعلى رأسها علم أصول الفقه الذي به يصلح الاستنباط، وتصلح الفتوى، ويستقيم التكلم في دين الله؛ لأن هذا العلم كما عرفوه هو: العلم بالقواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة التفصيلية، التي هي الآية والحديث والإجماع، وقد بينت ذلك تفصيلًا في كتابي:

«أثر القواعد الأصولية في تصحيح المعتقد وردّ شبه المنحرفين» وهو الجزء (٢٣) من سلسلة تصحيح المعتقد.

وأن طالب العلم الفطن العاقل ليعلم؛ أنه لو أمضى عمره كله في تحصيل ما يُمكنه من التكلم في دين الله من اكتمال شروط ذلك، لما استطاع أن يصل إلى غايته، وقرأ ما كتبه الأصوليون من شروط الاجتهاد والفتوى والتكلم في دين الله، وعندك في ذلك كتاب: الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر أبي عمر، وإرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، وروضة الناظر لابن قدامة، والبحر المحيط للزرکشي.

قال الشوكاني في «إرشاد الفحول» (٢/١٠٣٢):

«الشرط الرابع: أن يكون عالمًا بعلم أصول الفقه؛ لاشتماله على ما تمس الحاجة إليه، وعليه أن يطوّل الباع فيه، ويطلع على مختصراته ومطوّلاته بما تبلغ إليه طاقته.

وعليه -أيضًا- أن ينظر في كل مسألة من مسائله نظرًا يوصله إلى ما هو الحق فيها، فإنه إذا فعل ذلك تمكن من ردّ الفروع إلى أصولها بأيسر عمل، وإذا قصر في هذا الفن صعب عليه الردّ وخبط فيه وخلط.

قال الفخر الرازي في المحصول -وما أحسن ما قال-: إن أهم العلوم للمجتهد أصول الفقه. انتهى.

قال الغزالي: إن أعظم علوم الاجتهاد على ثلاثة فنون: الحديث، واللغة، وأصول الفقه. اهـ

ومن هنا أجتهد كل جهدي في تصفية هذا العلم العظيم مما شابه من البدع والكلام والمنطق والفلسفة، كما في سلسلة: الأبحاث الفقهية الأصولية السلفية.

وكان آخر جزء فيها وهو مجلد كبير (٥٢٠ صفحة) كتاب: «الفيلد شرح النبذ في أصول الفقه» وهو شرح لكتاب ابن حزم «النبذ في أصول الفقه» الذي هو اختصار لكتابه الكبير «الإحكام في أصول الأحكام» وقد جمعت لطلبة أهل السنة فيه مسائل هذا العلم على سبيل الاختصار غير المخل بالإمام بهذا العلم ينتفع به المبتدئ وغيره.

وعليه؛ فإن العقلاء من طلبة العلم لا يُضيِّعون أوقاتهم على مواخير وخمّارات ومقاهي الفيس بوك، التي تسرق العمر سرقة غالبية، وعليها يُشَيِّخ الصبيان والغلمان السفهاء والجهلاء الضلال، فحريٌّ بكل طالب علم أراد أن يبارك الله له في تحصيله وتعليمه أن يأخذ بأسباب التحصيل المعتبرة، وعلى رأسها تقوى الله التي تمنع المكلف وطالب العلم من الولوج في سُبُل الاعوجاج التي يتولّى كبرها سفهاء طلبة العلم المنحرفين، الذين لا يحسن الصبّيّ منهم عند التحقيق: التكلم في مسألة من مسائل هذا الدين.

• ماذا قال لي الشيخ رسلان على طلبة العلم؟

وفي آخر لقاء لي بالشيخ محمد سعيد رسلان من أيام، استمر لقائي به ساعتين، فكان ممّا قلته: إن طلبة اليوم مشايخ الغد فلا بد أن يجتهدوا في تحصيل العلم، فقال لي ساخراً: «بل طلبة اليوم هم مشايخ اليوم!! أنت يا شيخ عيد تنزلهم فوق منزلتهم، هم ليسوا بطلبة علم، أنا ما أرى طالب علم». اهـ

وانظر كتابي: «معالم دعوة تآكل بل تُنحر» وهو ضمن سلسلة تصحيح المعتقد. وليعلم أبنائي من طلبة العلم: أن النجاة من الفتن والشُرور تكون بالعلم، فلا تشغلوا أنفسكم إلا به، واتقوا الله حتى لا يُقبض العلم فلن تجدوا من تذهبون إليه ليعلمكم، وما كان ذلك كذلك إلا مما قدّمت أيدي السفهاء.

يا طلبة العلم: أهل السنة الذين هم أهل السنة في مصر يُعدّون على أصابع اليد، وغالبهم بعد الخمسين والستين من أعمارهم، فقدّموا أسباب الاستخلاف بعدهم وإلا، فوالله تهلكون ولا تُستخلفون ويتكلم فيكم الروبيضة.

يا طلبة العلم: يسخر منكم أهل الأهواء من المبتدعة الذين يحفظون كتاب الله بالقراءات العشر، ويحفظون كتب السنن، ويحفظون متون الفقه والأصول، ويتميّزون في اللغة والنحو، ولا يستطيع غالبكم مناظرة أحدهم في بعض مسائل الشريعة، بل هؤلاء يصفونكم بالجهل والتبجح، فأروا هؤلاء من أهل السنة علماً وخيراً ودعواكم من سفهاء الفيس بوك المنتسبين لطلب العلم زوراً وبهتاناً، قد أسكرتهم وسائل الاتصالات وعنهما يأخذون، فهم في غمرتهم يعمهون، غالب هؤلاء لا شيخ لهم إلا الإنترنت!!

• الطعن في رجال أهل السنة بأي وجه اليوم كالخيانة في ساحة المعركة وما يعقلها إلا العالمون:

وإنه ينبغي للعقلاء من أهل السنة أن يعلموا أن أهل البدع والأهواء قد اجتمعوا على قلب رجل واحد؛ يقيمون الندوات والمؤتمرات العالمية، يُصَرِّحون فيها بضرورة التصدي والمحاربة لأهل السنة، وبهذا قد أعلن على الملأ ما كانوا يكتفون به في صدورهم، ورُفعت رايات الحرب فعلاً، فإن لم يكبح أصحاب الهوى والشهوات من غلمان أهل السنة وصبيانها أنفسهم عن الإفساد في الأرض لعلا وظهر أهل الابتداع علينا، ولنكست رايات السنة، نعوذ بالله من الخذلان.

بل أستطيع أن أعلنها صريحة: إذا كان علماء أهل السنة هم الذين يتصدّون لأهل البدع ويكسرون شوكتهم بالحجة والبرهان، ويظهرون ضلالهم وزيغهم - حتى لا يفتتن بهم عوام المسلمين بما يؤدي إلى أن يلبسوا على الناس دينهم الحق - وعليه، فإن الطعن في أي رجل من المجاهدين باللسان والقلم من أهل السنة، بعدما أعلنت الحرب بينهم وبين أهل الابتداع، فإن هذا الطعن يعتبر خيانة عظمى في صفوف المسلمين؛ فإن أهل الأهواء والبدع أعظم خطراً على المسلمين من اليهود والنصارى، من الحلف الصهيوني العالمي الذي يريد القضاء على راية الإسلام والتوحيد، ووجه ذلك: أن المبتدعة من فرق المسلمين يفسدون ويخرّبون الديانة بقال الله قال رسوله قال العلماء، أما الكفار فحالهم معلوم والحذر منهم موجود.

روى اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٢٣) عن الحسن البصري قال:

«أهل الهوى بمنزلة اليهود والنصارى».

وروى الآجري في الشريعة (٢٠٩٨) عن الإمام الفقيه العالم أبي قلابة قال:

«لا تجالسوا أهل البدع ولا تجادلوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في الضلالة، أو يلبسوا عليكم في الدين ما لبس عليهم».

وروى الإمام ابن بطة العكبري في الإبانة الكبرى (٤٥٣) عن محمد بن النضر

الحارثي قال:

«إن أصحاب الأهواء قد أخذوا في تأسيس الضلالة وطمس الهدى فاحذروهم» .

وروى مسلم في صحيحه في المقدمة (٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
«يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فيآكم وإياهم ، لا يضلّونكم ولا يفتنونكم» .

وروى البخاري في صحيحه (٤٥٤٧) ومسلم (٢٦٦٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت :
تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾
[آل عمران : ٧] .

قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم» .

قال النووي في «شرح مسلم» (١٦ / ١٦٥) :

«وفي هذا الحديث التحذير من مخالطة أهل الزيغ وأهل البدع، ومن يتبع المشكلات في الفتن» . اهـ

وروى الإمام أبو القاسم اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤٩ ، ٥٠) عن الإمام سفيان الثوري قال :

«استوصوا بأهل السنة خيراً، فإنهم غرباء، إذا بلغك عن رجل بالمشرك صاحب سنة وآخر بالمغرب فابعث إليهما بالسلام، وادع لهما، ما أقل أهل السنة والجماعة» .

وروى اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد أيضاً عن أيوب السخيتاني (٣٠) أنه قال :

«إن من سعادة الحدث والأعجمي أن يوفقهما الله إلى عالم من أهل السنة» .

وروى اللالكائي أيضاً عن أيوب السخيتاني (٣٥ ، ٢٩) أنه قال :

«إن الذين يريدون موت أهل السنة يريدون أن يُطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

إني لأخبر بموت الرجل من أهل السنة فكأنني أفقدُ بعض أعضائي» .

وروى البيهقي في الزهد الكبير عن الحسن بن علي (٣٤٨) أنه قال :

«الطريق واضح، ولكن الهوى فاضح، والفقهاء في العبادات : حفظ النفس عن

الشهوات» .

فهذا كلام سلفكم ومنهجهم وعقيدتهم، فهل أنتم منتهون مهتدون تفقهون

تعقلون؟!!

نسأل الله -جلّ وعلا- أن يهدينا إلى الصراط المستقيم، والمنهج القويم، والهدى السليم، وأن يرُدَّ الشاردين من أبنائنا إلى المسلك الحق وسبيل المؤمنين، وأن يجنبهم شرّ أنفسهم وسوء الهوى وغلبة الشهوات، وأن يعلمهم ما ينفعهم، وأن يُنفعهم بما علمهم، وأن يجعله حجة لهم لا عليهم، وأن يُبصرهم بما ينصلح به دينهم ودنياهم، وأن يجنبهم مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يُفقههم في دينهم، وأن يرزقهم -بفضله ومته- الإحساس بهموم الدعوة والأمة، فإن الشعور بها يهدّب النفوس، ويُعقل الرؤوس، ويكسر للهوى الكؤوس، ويردّ إلى مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، الفؤوس، التي صُدّعت بها وهُدّمت معالم الضلالة والردى، وعلت بها منارات السنة والهدى، حتى اهتدى العالمون بهديهم وسيرهم وعقيدتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم ومنهجهم، وما ضل من ضل إلا بالإعراض عن طريقهم الذي فيه الفلاح والنجاة .

روى مسلم في صحيحه (٢٥٣١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن

رسول الله ﷺ قال :

«النجوم أمانة للسماء، فإذا ذهب النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمانة

لأصحابي، فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمانة لأمتي، فإذا ذهب

أصحابي أتى أمتي ما يوعدون» .

قال النووي في شرح مسلم (٦٤ / ١٦) تحت باب : «بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان

لأصحابه، وبقاء أصحابه أمان للأمة» :

«قوله ﷺ: «وأصحابي أمانة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون» معناه: من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن فيه، وظهور قرن الشيطان، وظهور الروم وغيرهم عليهم». اهـ

قلت: وذهاب الصحب هو ذهاب منهجهم وهديهم.

وإني لا أستبعد على أهل الأهواء أن يدسوا بين صفوف أهل السنة مَنْ يفسد عليهم أمرهم ويُفِرِّق جماعتهم ووحدهم فاحذروهم؛ بتقوى الله القائل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣].

فقوله تعالى: ﴿مُخْرَجًا﴾ نكرة في سياق الشرط الذي هو التقوى، والنكرة في سياق الشرط تعم عند الأصوليين بإجماع منهم، والمعنى: أن التقوى سبب لكل مخرج من كل ما يحتاج إلى مخرج من الكروب والهموم والفتن والشور والنصب وكل سوء يُلم بالنفس البشرية.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

فقوله: ﴿فُرْقَانًا﴾ نكرة في سياق الشرط الذي هو الإيمان فيعم كل فرقان، وهو الفيصل بين الحق والباطل. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب

د. عبيد بن أبي السعود الكيال

وكان الانتهاء من كتابته بعد فجر الخميس، الثالث من

صفر ١٤٣٨هـ، الموافق الثالث من نوفمبر ٢٠١٦م،

الهجانة، م. نصر، القاهرة، مصر حفظها الله

فهرس الكتاب

- ٣ مقدمة •
- ٤ سبب تصنيف هذا الكتاب •
- ٥ خطبة البحث •

الفصل الأول:

تحرير القول في بيان ما يُعتبر في الحكم على الرجال

- ٦ تناول الموضوع من خلال كلام جليل لشيخ الإسلام ابن تيمية •
- ٦ بداية الكلام وما كان من يونس بن متى عليه السلام •
- ٧ تبرئة يوسف عليه السلام مما نسب إليه •
- بيان غلط من فضل الملائكة على الأنبياء والصالحين لا اعتبارهم بداية الصالحين •
- ٩ بيان خطأ من ظن أن من وُلِدَ على الإسلام فلم يكفر أفضل ممن كان كافراً ثم أسلم •
- وكذلك من دخل مع أهل البدع فحاله أفضل ممن لم يدخل •
- ١٢ ذكر الأمثلة على ما يُبين ذلك من أحوال الصحابة رضي الله عنهم •
- بيان خطأ قول الروافض: إن الله لا يبعث نبياً إلا من كان معصوماً قبل النبوة •
- ١٣ ذكر الأدلة: على أن الله قد بعث أنبياء كانوا قبل البعثة كفاراً •
- المنازعون يتأولون الأدلة المذكورة تأويل الجهمية •
- ١٧ بيان فساد هذا التأويل •
- بيان الكلية المأخوذة من حديث: «كل بني آدم خطاء» •
- ١٩ الفوائد المستنبطة مما أصله شيخ الإسلام ابن تيمية بالكتاب والسنة والإجماع •
- ١٩ والإجماع •

- ٢٠ • الفائدة الأولى : مسألة عصمة الأنبياء في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة أمرٌ مختلف فيه
- ٢١ • الفائدة الثانية : متى تكون الذنوب منافية للكمال؟
- ٢٢ • الفائدة الثالثة : بيان وجه الدلالة من الأدلة التي استدل بها ابن تيمية على أن الله بعث بعض الأنبياء، كانوا قبل البعثة كفارًا
- ٢٥ • حال المهدي المنتظر وقد أصلحه الله في ليلة
- ٢٦ • الفائدة الرابعة : إذا كان أمر الكفر أعظم من البدعة فماذا بعد؟!
- ٢٦ • الفائدة الخامسة : حال الإمام أبي الحسن الأشعري، ونعيم بن حماد الخزاعي، شيخ البخاري
- ٢٦ • حال الإمام أبي علي الفضيل بن عياض
- ٢٧ • حال الإمام سفيان الثوري
- ٢٨ • الفائدة السادسة : الضابط المعتبر في الحكم على الرجال بكمال العاقبة والمآل التي صاروا إليها وأصبحوا عليها، لا بما جرى لهم في بداية الحال من زلل أو انحراف؛ لأن التوبة تجب ما قبلها، وتحول السيئات حسنات، فمن قال بعكس ذلك، فلازم قوله الكفر بالله العظيم، وبيان وجه ذلك
- ٣٢ • الفائدة السابعة : الأعمال بخواتيمها، ودليل ذلك
- ٣٤ • الفائدة الثامنة : كلیم الله موسى وذنبه بقتل الرجل، وتأکید لما رجّحه ابن تيمية
- ٣٦ • الفائدة التاسعة : معنى قوله تعالى : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾
- ٣٩ • الفائدة العاشرة : الإمام حذيفة بن اليمان خبير الفتن والشرّ والجهالات رضي الله عنه
- ٤٠ • سبب آخر لتصنيف الكتاب
- ٤٢ • استندراكٌ توجّب أمره
- ٤٥ • حديث شقّ صدر النبي ﷺ وهو صبيّ وإخراج حظ الشيطان من قلبه ...

- من أقوى الأدلة على إيمان الأنبياء قبل الرسالة ٤٩
- أسلم قرينُ النبي ﷺ فلم يأمره إلا بخير ٥٣

الفصل الثاني:

طلبة التجهيل بين الجهل المركب والبسيط

- في معنى الجهل المركب والبسيط ٥٦
- غلمان صبيان بلحَى فيهم جاهلية ٦٠
- رسالة إلى طلبة العلم المباركين الغرباء من أهل السنة ٦٣
- ماذا قال لي الشيخ رسلان على طلبة العلم؟ ٦٥
- الطعن في رجال أهل السنة بأي وجه من الوجوه اليوم، كالخيانة في
ساحة المعركة وما يعقلها إلا العالمون ٦٦
- فهرس الكتاب ٧٠

* * *